ما نفاه القرآن الكريم عن رسول اللّه ﷺ من صفات

دراسة دلالية

إعداد

سُعده عبد الفتاح محمد أبوحسين

أستاذ أصول اللغة المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ

٢٠٢٣ م

ما نفاه القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ من صفات دراسة دلالية

سعده عبد الفتاح محمد أبو حسين
قسم أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ .

الملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد

فإن القرآن الكريم قد أوجب صفات عديدة لسيدنا رسول الله ﷺ ونفى عنه صفات عديدة قد وصفه بها الكفار؛ تقليلا من شأنه وحطًا من قدره، لكن لله . سبحانه وتعالى . قد قام بالدفاع عنه تثبيتًا وتأييدًا ونصرًا، فنعته بعظيم الصفات وجميل السمات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

ومن فضل الله علي أن وفقني . في بحث سابق . إلى تناول الصفات التي أثبتها الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ فتتبعت بالدرس والتحليل جميل صفاته وعظيم أفعاله، ثم دفعني ذلك إلى إكمال ما بدأته بأن أتتبع ما ادعاه المشركون عليه من صفات لا تليق، قد نفاها عنه القرآن الكريم، فكان هذا البحث (ما نفاه القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ من صفات) دراسة دلالية.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي بأداتيه التحليل والاستقراء. وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاث مباحث وخاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجع

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يرزقنا التوفيق والرشاد، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى اللهم على سيدنا ومحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الكلمات المفتاحية (دفاع . الصفات . السلب . القرآن الكريم . دراسة دلالية)

THE ATTRIBUTES THE HOLY QUR'AN DISCLAIMED FOR THE MESSENGER OF ALLAH (PBUH): A SEMANTIC STUDY

So'da Abdel Fattah Muhammad Abu Hussein
Assistant Professor at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Kafr El-Sheikh.

Abstract
Praise be to Allah, and prayers and peace be upon his family, companions, and those who follow him.
The Holy Qur'an has enjoined many attributes to the Messenger of Allah (PBUH) and denied many attributes which the infidels have claimed to disregard him and degrade his status. But Allah Almighty defended and support him with steadfastness and victory, describing him with great traits and beautiful attributes. As Allah Almighty said: "And indeed, you are of the highest character." *Al-Qalam4.*
It is by Allah's grace that He enabled me, in a previous research, to handle the prophet's attributes that Allah Almighty affirmed, so I traced through study and analysis the prophet's beautiful traits and great effectiveness. This stimulated me to complete what I had begun by tracing the unbecoming traits that the polytheists attributed to the prophet (PBUH), which the Holy Qur'an denied.
In this study, I followed the descriptive approach using analysis and induction. The research is divided into an introduction, a preface, three chapters and a conclusion followed by the most important sources and references.
I hope that this research is for the sake of Allah's Honorable face and that He will grant us success and guidance; He is the best Lord and the best Supporter. May blessings and peace be upon our Prophet Muhammad and his family and companions .

Keywords: (defense - attributes - plunder - the Holy Qur'an - semantic study)

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد

فإن القرآن الكريم قد أوجب صفات عديدة لسيدنا رسول الله ﷺ ونفى عنه صفات عديدة قد وصفه بها الكفار؛ تقليلا من شأنه وحطًا من قدره، لكن لله . سبحانه وتعالى . قد قام بالدفاع عنه تثبيتًا وتأييدًا ونصرًا، فنعته بعظيم الصفات وجميل السمات، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

ومن فضل الله علي أن وفقني . في بحث سابق . إلى تناول الصفات التي أثبتها الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ فتتبعت بالدرس والتحليل جميل صفاته وعظيم أفعاله، ثم دفعني ذلك إلى إكمال ما بدأته بأن أتتبع ما ادعاه المشركون عليه من صفات لا تليق قد نفاها عنه القرآن الكريم، فكان هذا البحث (ما نفاه القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ من صفات) دراسة دلالية .

وقد دعاني إلى تتبع هذه الصفات ما يلي :

١- الكشف عن تلك الصفات التي وصفه بها الكفار.

٢- ردّ هذه الشبه ودحض هذه المفتريات.

٣- بيان أنواع الأساليب التي صاغ بها المشركون تراكيبهم ودلالالتها.

٤- إبراز أوجه الردود التي ردّ بها القرآن هذه المفتريات.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي بأداتيه التحليل والاستقراء.

تساؤلات الدراسة :

. ما الصفات التي وصف بها الكفار رسول الله ﷺ.

. الداعي إلى وصفه بهذه الصفات.

. ما الأساليب التي اتبعها المشركون في وسم رسول الله ﷺ بهذه الصفات.

. هل الجحود والعناد كانا سببين في وصفه ﷺ بهذه الصفات .

ولا أجد – فيما وقعت عيني عليه– بحثا مستقلا في الدراسات اللغوية الحديثة تناول الحديث عن الصفات المنفية عن رسول الله ﷺ في القرآن الكريم.

هذا وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي بأداتيه التحليل والاستقراء ، حيث قمت بجمع الصفات المنفية عنه ﷺ ، ثم قمت بترتيبها ترتيبا هجائيا، ثم أتبعتها بالشرح والتحليل من خلال السياقات الواردة فيها، عن طريق بيان معانيها المعجمية، ودلالة حروفها و مقاطعها الصوتية ما أمكن، **وكذا دلالة أوزانها الصرفية ، ودراسة التركيب النحوية من خلال السياقات القرآنية الواردة فيها**، مستعينة في كل ذلك بكتب اللغة والمعاجم والتفسير والحديث وكتب السير والشمائل .

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاث مباحث وخاتمة وثبت بأهم المصادر والمراجع، أما المقدمة: فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والصعوبات التي واجهتني ، والدراسات السابقة، والمنهج الذي سرت عليه.

وأما التمهيد: فتحدثت فيه عن قدر النبي عن ربه، ودفاع الله عنه ﷺ وعصمته من الناس وكفايته ممن آذاه.

وأما الثلاثة مباحث ، فجاء الأول بعنوان :ما نفاه المولى _ سبحانه _ من صفات عن رسوله ﷺ رأفة ورحمة به وتحنانًا عليه.

وأما الثاني: فجاء بعنوان : **ما نفاه المولى – سبحانه – من صفات عن رسوله ﷺ دفاعًا عنه وغَيْرة عليه.**

وأما الثالث: فجاء بعنوان: الوحدات النحوية التركيبية وأثرها في دحض مفتريات المشركين من خلال السياق القرآني .

وأما الخاتمة: فتناولت فيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها، ثم بعد ذلك ثبت بأهم المصادر والمراجع التي ساعدتني في إتمام هذا البحث، راجية من الله السداد والقبول، وما كان من توفيق فمن الله وما كان من خطأ فمني وأستغفر الله، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يرزقنا التوفيق والرشاد، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى اللهم على سيدنا ومحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث

التمهيد

أولا: قَدْرُ النبي عند ربه :

أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بفضائل جمّة، وصفات عديدة وميزه على جميع خلقه، فخصه بالمحاسن الجميلة ،والأخلاق العظيمة فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] ، وأيده بالمعجزات الباهرة والبراهين الواضحة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ،أي: " أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب"(1)، وجعله رحمة للعالمين ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فوصفه سبحانه . وتعالى . بما وصف به نفسه ، مما يدل على أن (رحمته) ﷺامتدادًا لرحمته تعالى،فَأَمَّنَ أعداءه من العذاب مدّة حياته (عليه الصلاة والسلام) ، وعُوفي مما أصاب الأمم السابقة من الخسف والقذف، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] (2)

وخاطبه ربه بالنبوة والرسالة وخاطب غيره من الأنبياء باسمه، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] إجلالا

(1) تفسير السعدي صـ 929.

(2) ينظر: جامع البيان (18/ 552)، ودلائل النبوة للأصبهاني صـ 39.

وتوقيرًا وتعظيمًا لقدره عند ربه، وخاطب سبحانه . وتعالى . غيره من الأنبياء بأسمائهم فقال سبحانه : ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥] ، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨] ، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾ [هود: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٠] ، إلى غير ذلك من الآيات التي نادى فيها المولى أنبياءه ورسله.

كما نلحظ أن في كل موضع ذُكر فيه اسم المصطفى ﷺ أُضيف إليه الرسالة تشريفًا وتكريمًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، وكأن تسمية الله له بمحمد زيادة في جلال قدره ، وتنبيها على مزيد شرفه(١).

* ونهى الكافة أن يخاطبوه باسمه كنداء بعضهم بعضًا، تبجيلا وتشريفًا وتعظيمًا لقدره، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] أي:" أي عظّموه فى الخطاب، واحفظوا فى خدمته الأدب، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير" (٢)، وندبهم الله . تعالد إلى تكنيته بالنّبوّة والرسالة؛ رفعة لمنزلته وتشريفًا لقدره على جميع الرسل والأنبياء ،وأوجب تعالى تعزيره ﷺ وتوقيره(٣)، وألزم سبحانه إكرامه

(1) ينظر: إمتاع الأسماع (3/ 105) وما بعدها.
(2) ينظر :لطائف الإشارات (2/ 624).
(3) امتاع السماع (3/ 108).

وتعظيمه، فقال تعالى : ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ ﴾ [الفتح: ٩] أي : تعظمونه غاية التعظيم في قلوبكم، وتطيعوه بأبدانكم؛ ولهذا سُمي التعزير تعزيرًا لأنه أكبر الأدب[1] .

وقرن اسْمَهُ بِاسْمِهِ في كتابه عند ذكر طاعته، ومعصيته، وفرائضه، وأحكامه، ووعده ووعيده، تعظيمًا لقدره ﷺ وتشريفا لمنزلته عند ربه[2]، فقال تعالى : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] ، وَقَالَ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٤] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١] .

وقد لَعَن الله . تعالى . من آذاه وآذى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧] [3]

وغير ذلك من الفضائل والهبات الربانية والنفحات الإلهية التي فضّل بها نبيه على سائر خلقه أجمعين، فجزى الله عنا سيدنا محمد ﷺ ما هو أهله.

ثانياً : دفاع الله عنه ﷺ وعصمته من الناس وكفايته ممن آذاه:

(1) تفسير التستري صـ 147.

(2) دلائل النبوة للأصبهاني صـ 47، وينظر: خصائص سيد العالمين صـ 473.

(3) رحمة للعالمين صـ 442.

بلغ الرسول الأمين ما أنزل إليه من ربه بصبر واحتساب لا يقطعه عن ذلك مكر الماكرين أو أذى المعاندين أو كيد الكائدين، بل كان مخلصًا في نصحهم ، حريصًا كل الحرص على دعوتهم للإيمان وهدايتهم إلى طريق مستقيم، لكنهم تمادوا في الاستكبار والعناد، فكذبوه ورموه بالجنون والسحر والكهانة وأذوه ﷺ أشد الإذاء ، فكفاه سبحانه وتعالى . أمر المستهزئين فلم يصلوا إليه بسوء، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] وهذا وعد من الله . تعالى . أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل . تعالى ، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة"[(١)]، وعصمه سبحانه . وتعالى . من الناس جميعًا، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ،أي: يحفظك ويقيك من كيد أعدائك[(٢)] .

وروي عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ) [(٣)]

وكان من سبقه من الأنبياء (صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين) يدافعون عن أنفسهم أمام مكذبيهم من أممهم ومعانديهم[(٤)]، فقال تعالى

(1) تفسير السعدي صـ 435

(2)ينظر: التحرير والتنوير (6/ 263).

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (1/ 346).

(4) ينظر: إمتاع الأسماع (3/ 111).

حكاية عن قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] ، فقال دافعا عن نفسه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] ، وقال قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: ٦٦] ، فقال دافعا عن نفسه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] إلى غير ذلك مما حكاه القرآن عن دفاع الأنبياء عن أنفسهم، لكن المولى سبحانه . وتعالى . تكفل بالدفاع ورد الكيد عن رسوله محمد ﷺ،فعندما وصفوا الرسول بالجنون، قال عز وجل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢] وعندما اتهموه بالشعر، فذبّ عنه سبحانه فقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: ٦٩]، وعندما رموه بالكهانه دافع عنه سبحانه . وتعالى . فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢] ، وفي ذلك يقول الإمام القشيري : "لمّا بسطوا لسان الذمّ في الله أمر نبيّنا بأن يردّ عليهم فقال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، أي: ذبّ عنى ما قالوا، فأنت أولى بذلك، وحينما بسطوا لسان الذمّ في النبيّ صلى الله عليه وسلم تولّى الحقّ الردّ عليهم، فقال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ١-٢] ،وقال : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١-٢] ،أي أنا أذُبّ عنك فأنا أولى بذلك منك(١).

إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن دفاع الله عن النبي ﷺ والتي سنعيش معها في هذا البحث من خلال الصفات المنفيه عنه صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم .

(1) لطائف الإشارات (3/ 783).

المبحث الأول

ما نفاه المولى ـ سبحانه ـ من صفات عن رسوله ﷺ

رأفة ورحمة به وتحنانا عليه

لقد شرف المولى سبحانه . وتعالى . نبيه ﷺ بكرمات خلعها عليه وحلاه بها فوصفه بما وصف به ذاته . عز وجل . من أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ولم تجمع لنبي من قبله، ونص عليها القرآن الكريم في مواطن كثيرة، مثل : (الحكيم ، الرءوف، والرحيم، والشاهد، والعزيز، والعظيم، والعفو، والكريم، والنور، والولي) مما يدل على أن صفاته صلى الله عليه وسلم امتدادًا لصفات الله . تعالى . ومن جنسها وإن كانت تختلف في قدرها ومقدارها، على الجانب الآخر حكى القرآن الكريم في مواطن أُخرى ما نفاه عنه سبحانه . وتعالى . من صفات أثبته لذاته . سبحانه . مثل: (الجبار ،الحفيظ، المسيطر ، الهادي ، الوكيل) وجاء النفى رأفة ورحمة وشفقة بالرسول ﷺ وتسلية لصدره الشريف؛ لأن هذه الصفات لا تقع في مقدور البشر ولو كان رسولا نبيًا،لآن مقتضاها يتطلب الإحاطة في العلم . كما سيوضحه البحث من خلال التحليل . وهذا لا يكون إلا لله . سبحانه وتعالى . وصدق الله حيث قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفيما يأتي تفصيل هذه الصفات :

١- **الجبار**

يطلق الجَبْر في أصل الاستعمال اللغوي على الإصلاح مع الإكراه، ثم توسع فيه فأُطلق على الاصلاح المطلق سواء كان بقهر أو بدونه، يقول الإمام الراغب:" أصل الجَبْر:إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جَبَرْتُه فانجبر واجتبر، ثم عُمِّمت دلالته بعد ذلك فأصبح يطلق على الإصلاح

المجرد، وتارة على القهر المجرد، ومنه سُمي السلطان جَبْرًا؛ لقهره الناس على ما يرده"[١].

يتضح من كلام الإمام الراغب أن (الجبر) يختص بمن له العظمة والسلطة والحكمة في اختيار الأصلح، وهو قريب مما ذكره الإمام ابن فارس في مقاييسه، حيث قال:" الْجِيمُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ جِنْسٌ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْعُلُوِّ وَالِاسْتِقَامَةِ. فَالْجَبَّارُ: الَّذِي طَالَ وَفَاتَ الْيَدَ، يُقَالُ فَرَسٌ جَبَّارٌ، وَنَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ"[٢] .

والجبّار فعّال مبالغة[٣] في جَابِر، والجَبَّار اسم من أسمائه . سبحانه وتعالى . وصفة من صفاته، يقول الإمام ابن الأثير:" في أسماء الله تعالى (الجبّار) ومعناه الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي، يقال: جَبَر الخلق وأجْبَرهم، وقيل: هو العالي فوق خلقه، وفَعَّال من أبنية المبالغة، ومنه قولهم: نخلة جبّارة"[٤] ،ونظر الإمام ابن الأثير إلى أصل استعمال اللفظ في اللغة وهو القهر المجرد ،فضمّنه معنى القهار والمُسلّط ، بينما ضمنه الإمام السعدي معنًا ثالثًا وهو الرؤوف، فنظر إلى عموم استعمال اللفظ، فقال:"الجبار في أسمائه الحسنى ثلاث معان، هي: الأول: أنه الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، والثاني: أنه القهار لكل شيء الذي دان له كل شيء وخضع، الثالث: أنه العلي على كل شيء، فصار الجبَّار

(1)المفردات صـ 183 مادة(ج ب ر).

(2)مقاييس اللغة (1/ 501) مادة(ج ب ر).

(3)ينظر: شذا العرف صـ 62، معاني النحو (3/ 177).

(4)النهاية (1/ 235).

متضمنا لمعنى الرؤوف والقهار "[1].

وعلى هذا فالجبّار في صفات الخلق مذموم؛ لأنه يطلق على العاتي المتمرد المتكبر ،يقول الإمام الراغب:" والجبّار في صفة الإنسان، يقال: لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥) "[2].

بالتأمل في أصوات هذه الصفة نجد أنها تجسد الدلالة الإيحائية للفظ ، فالجيم بجهرها وشدتها [3] ترسم القهر والتسلّط خاصة بأنها في أول الوصف مما يدل على تمكين الشدة والسيطرة ، ثم تأتي بعدها الباء بانغلاقها[4] لا سيما وهي مشددة، وما يتبعها من مدّ ليرسم التعالى والتكبر والعظمة ، والراء بتكرارها[5] تدل على المبالغة في الوصف وتكثيره بتكريره في جميع مواقف الحياة فيمن اتصف بذلك، لتدل على أنها طبع وسجية لمن اتصف بها لا تنفك عنه.

ولِقُبْح هذه الصفة في حق العباد نفاها سبحانه – وتعالى – عن حبيبه ﷺ، وجاء الوصف بها في القرآن علي صيغة :

---

(1)ينظر تفسير أسماء الله الحسنى (1/ 77).

(2)ينظر :المفرادات (1/ 184).

(3) ينظر: الرعاية صـ 116، 117.

(4) ينظر: علم الأصوات د. بشر (2/ 212).

(5) ينظر: الرعاية صـ 130

(فَعَّال : جبَّار):

فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ (ق: ٤٥)؛ وذلك لأن الخلق أُمروا بالتواضع ولِين الجانب لا التكبر والقهر، يقول الإمام السمعاني:" والجَبَّار في صفات الله محمود ، وفي صفات الخلق مذموم وكذلك المتكبر؛ لأن الخلق أمروا بالتواضع والخشوع والخضوع ولين الجانب وخفض الجناح"(١)

والمعنى: نحن أعلم يا محمد بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله وتكذيبهم بآيات الله، وما أنت عليهم بمسلط أو قهار فتُكرِهُهم على الإيمان(٢).

والآية تهديد ووعيد محض لهؤلاء الكفار؛ لأن الله سيتولى عقابهم، فهو أعلم بحالهم ومن علم شيئا جازى عليه، على الجانب الآخر تسلية لصدر النبي ﷺ ، وتطمينًا لقلبه، بأنه قد أدَّى ما عليه من البلاغ وليس عليه جبرهم أو إكراههم على الإيمان .

وقد استخدم السياق القرآني للتعبير عن ذلك صيغة (فعّال) مبالغة في نفي الصفة عنه ﷺ ومبالغة فيما يقتضية النفي ، وهو الإيغال في تسلية قلب النبي ﷺ وزيادة في تطمين قلبه، وهذا إن دلّ فإنما يدّل على شدة الحزن الذي ملأ قلب النبيﷺ بسبب عدم إيمانهم ، مبالغة في حرصه ﷺ الشديد على إصلاحهم في حال عتوهم وغلوهم وشططهم ولم لا وقد وصفه – عز وجل – بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة :

(1)تفسير السمعاني (5 / 248).

(2)ينظر: جامع البيان (22/ 383).

.(١٢٨

وقد ألمح الإمام ابن عاشور إلى دلالة هذه الصيغة (جبّار)، فقال: " قوله تعالى ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ (ق:٤٥) إيغال في تسلية النبي ﷺ وتعريض بوعيدهم، فالخبر مستعمل مجازًا في وعد الرسول ﷺ بأن الله سيعاقب أعداءه، وقوله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ تطمين للرسول ﷺ بأنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم؛ لأنه إنما بعث داعيا وهاديا، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان، والجبّار مشتق من جبره على الأمر، بمعنى: أكرهه، وفرَّع عليه أمره بالتذكير؛ لأنه ناشيء عن نفي كونه جبّارًا عليهم"[١].

وسبقه في التصريح بدلالة الصيغة على المبالغة الإمام ابن عطية، فقال: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ وما أنت عليهم بمسلط تجبرهم على الإيمان، ويقال: جبرته على كذا أي: قهرت، فـ(جبَّار) بناء مبالغة من جبر "[٢].

ثم يأتي المقطع الصوتي بعد ذلك؛ ليعضد هذه الدلالة ويجسدها، فالصيغة تتكون من مقطعين مغلقين من النوع المتوسط (ص ح ص / ص ح ح ص) (جَبْ / بَـارْ) مما يدل بانغلاقهما على ثبات الوصف وانغلاق الصدر عليه، فهو سجية وطبع لمن اتصف به ، ويجسد المقطع بحركته الطويلة(ص ح ح ص) التعالي والتكبر والعظمة وشيوع ذلك واشتهاره لمن اتُصف به؛ لملازمة الوصف له في كل أحواله، مما أدى إلى

(1)التحرير والتنوير (26/ 333).

(2)ينظر: المحرر الوجيز (5/ 170).

النفور من الصفة وصاحبها؛ لأنه تجاوز بقوته إرادة الضعيف فأكرهه[١] .

ومن هذا نستنتج أن نفي الصفة إثبات لضدها، وهذا ما أكده القرآن في مواطن عديدة من إثبات الرحمة والرءفة في حق المصطفى ﷺ لأمته وصدق الله حيث قال : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] .

٢- **الحفيظ:**

يدل المعنى المحوري لمادة (ح ف ظ) على الرعاية والحراسة القوية للشيء وصونه عن الزوال، يقول الإمام ابن فارس:" الحاء والفاء والظاء أصل واحد يدل على مراعاة الشيء"(٢)، يقال :" حفِظتُ الشيء حِفظًا، أي: حرسته "[٣]، فالحفظ: قوة داخل الإنسان تُعينه على توخي الحذروالحيطة الشديدة؛ لرعاية ما يُتَملك من الأشياء سواء كانت في الذهن كالأفكار ويضاده النسيان أو بخارج الذهن كالمال ويضاده التضيع، ثم توسع في معناه فاستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية[٤]، يقول الإمام الراغب:" الحِفْظ، يقال: تارة لهيئة النفس التي بها يثْبُت ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضادّه النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظاً، ثم يستعمل في كلّ تفقّد وتعهّد ورعاية"[٥].

---

(1)المعجم الاشتقاقي (1/ 272) مادة (ج ب ر).

(2) مقاييس اللغة مادة (ح ف ظ)

(3) الصحاح مادة (ح ف ظ)

(4)المعجم الاشتقاقي مادة (ح ف ظ) .

(5)المفردات (1/ 244) مادة (ح ف ظ)

ويرسم النسيج الصوتي لهذه الكلمة الدلالة الإيحائية لها، فالحاء بهمسها ورخاوتها[١] تدل على هيئة النفس واستعدادها للقوة الحافظة،وتشاركها في ذلك الفاء فتدل برقتها وحفيفها[٢] على التعهد والرعاية والحراسة بلطف وتُؤدة ، والياء بلينها ومدها [٣] تدل على طول الملابسة والملازمة في خُفية ؛ خشية التفريط أو الإفراط، والظاء بجهرها واستعلائها وتفخيمها [٤] تدل على قوة الحفظ، وتمكنه في النفس وصونه من التضييع.

والحفيظ صفة من صفات الله . سبحانه وتعالى . واسم من أسمائه، فهو المحيط علمه بجميع أعمال خلقه ظاهرها وباطنها دون أن يطرأ عليه سهو أونسيان، وعليه فالحفظ في حقه . سبحانه وتعالى – السيطرة والهيمنة بكل ما كان وما يكون وما هو كائن قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (هود:٥٧)، ومن حفظه . سبحانه وتعالى . لمخلوقاته هدايتها لما فيه مصالحها بإرشاده كالهداية إلى المأكل والمشرب والسعي إلى أسباب ذلك، كما قال . سبحانه وتعالى:" ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠) وحفظه لأوليائه من الوقوع في الهلكات

(1) ينظر الرعاية صـ 164

(2) فهي حرف ضعيف؛لأنها اجتمع فيها صفتان من صفات الضعف وهي الهمس والرخاوة . ينظر: الرعاية صـ 227، والصفات القوية والضعيفة في الصوامت صـ 75.

(3) والياء من حروف المدّ، وسميت بذلك لأن مدّ الصوت لا يكون في شيء من الكلام إلى فيهن، وجسد هذا المدّ طول العهد في الصفة التي معنا. ينظر: الرعاية صـ 125.

(4) ينظر: الرعاية صـ 220

والمضَار[١] ، يقول الإمام السعدي:" الحفيظ: الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات،ولطف بهم في الحركات، والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها"[٢].

ولتضمن (الحفظ) معنى السيطرة والهيمنة والمراقبة؛ نفاه سبحانه . وتعالى . عن رسوله (صل الله عليه وسلم) رأفة ورحمة وتحنانا به ؛ لما يتضمنه معنى الوصف من أمور لا تقع في مقدور البشر ولو كان رسولا نبيًا .

وجاء الوصف في القرآن الكريم على صيغة واحدة ، وهي:

((فعيل : حفيظ)

قال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: ٨٠) ، أي: لست عليهم برقيب ولا مهيمن[٣]، فلست حافظًا لهم من الوقوع في الذنوب والمعاصي، ولست محاسبًا لهم [٤]، يقول الإمام البيضاوي:" قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾، أي: تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب "[٥]، وفي هذا تذكيرًا له بوظيفته، فقد

---

(1) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (1/ 48) .

(2)تفسير أسماء الله الحسنى صـ 182.

(3) ينظر : بحر العلوم (1/ 320) ، الكشاف (1/ 539).

(4)ينظر: المحرر الوجيز (1/ 277).

(5)أنوار التنزيل (2/ 86).

بُعث مبلغًا ومرشدًا لا هاديًا، فقال تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ (الشورى : ٤٨) تأنيسًا وتسلية له (صل الله عليه وسلم) ونفيًا للتَبِعة عنه في إعراضهم عن دعوته(١)، يقول الإمام ابن عطية :قوله تعالى ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ ﴾ تأنيس لمحمد (عليه السلام) وإزالة لهمه بهم، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ وتوصيل الحجة "(٢) .

وجاء نفي هذه الصفة على لسانه (صل الله عليه وسلم) في مخاطبته المشركين، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾(الأنعام:٤٨) تعذيرًا وتخويفًا من عقاب الله، فهو الرقيب عليهم في السر والعلانية، وفي ذلك يقول الشيخ القلموني:" ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام:١٠٤] يراقب أعمالكم ويحصيها ليجازيكم عليها، وإنما أنا بشير ونذير والله هو الرقيب الحفيظ، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون ويجزيكم عليه بما تستحقون، فعليه وحده الحساب، وما علي إلا البلاغ"(٣).

والآية الكريمة تبين ما يتعلق بالرسول ﷺ وهو الدعوة والتبليغ و الإنذار، وما لا يتعلق به وهو إقدامهم على الإيمان وترك الكفر(٤)، حيث إنه ﷺ كان

(1)ينظر: التحرير والتنوير (133/1).
(2) المحرر الوجيز (5/ 42).
(3) تفسير المنار (7/ 548).
(4)ينظر: مفاتيح الغيب (13/ 105)

يجهد نفسه في ذلك وينسب لنفسه التقصير في عدم إيمانهم، فأراد الله أن يسلي صدره ﷺ ويطمئن قلبه الشريف، فقال تعالى﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴿٨١﴾﴾ [النمل:٨١] .

واستخدم السياق القرآني لذلك الوصف حفيظ بمعنى حافظ على فعيل بمعنى فاعل مبالغةً في نفي الحفظ عنه ﷺ ونفي متعلقه(١)، يقول الشيخ الشعراوي:" الحفيظ هو الحافظ بمبالغة، تقول مثلا: (هذا حافظ مال فلان)، وهذا حفيظ مال فلان)،وهذا حفيظ مال الناس جميعا، يعني عنده مبالغة في الحفظ، إذن فالمبالغة جاءت في تكرير الحدث، فهو يحفظ لذلك الإنسان ولغيره"(٢) .

كما دلت اسمية الجملة على ثبوت النفي وديموميته، وقد أشار الإمام السعدي إلى ذلك، فقال:" قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤] أحفظ عليكم أعمالكم وأراقبها عليها على الدوام"(٣)، وهذا يدل على ثبوت ودوام متعلق الصفة، وهو عدم حزن النبيﷺ على عدم إيمانهم ونسبت التقصير لنفسه، وفي ذلك يقول الإمام الرازي:" لا ينبغي أن تغتم بسبب ذلك التولي أو الحزن، فما أرسلناك لتحفظ الناس عن المعاصي، والسبب في ذلك أنه (عليه الصلاة والسلام) كان يشتد حزنه

(1)ينظر: التحرير والتنوير (133/1).
(2)خواطر الإمام (4/ 2464).
(3) تفسير السعدي (١/ ٢٦٨)

بسبب كفرهم وإعراضهم ، فالله تعالى ذكر هذا الكلام تسلية له (عليه الصلاة والسلام) عن الحزن " [1].

من جانب آخر تدل الجملة على دوام واستمرار الثواب للمطيع والعقاب للعاصى، ، وفي ذلك تعريض بالتهديد للمعرضين عن آيات الله؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمرهم، يقول الإمام ابن عاشور:" قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام: ١٠٤] ،أي: حارسًا لهم ومسولا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم، فيعلم أن الله سيتولى عقابهم"[2].

والحق . سبحانه وتعالى . ينفى عنه هذه الصفة حبًا له وتحنانًا عليه ﷺ وتسلية لقلبه وتأكيدًا لمصلحته؛ حيث إنه كان يحزن حزنًا شديدًا ويغتم بسبب عدم إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف:٦] ، فأراد . سبحانه . أن يزيل ما أوغر صدره، ويذكره بوظيفته وهي البلاغ، أما الحفظ فله . سبحانه وتعالى . لأن علمه محيط بكل ما دقّ ولطف، ويعلم كل شيء بعلمه القديم، فهو المسيطر والمهيمن، وهو الذي يحملهم على الإيمان وحده.

وبالتأمل في المقطع الصوتي للصيغة نجد أنه يتكون من مقطعين في حالة الوقف وهما (ص ح / ص ح ح ص) الأول منهما يناسب التلطف والسرعة في الحفظ، والثاني بخصائصه من الحبس والانغلاق يدل على

(1) مفاتيح الغيب (10/ 150).

(2)التحرير والتنوير (5/ 135).

التمكن من الفعل وطول الملابسة والمتابعة والاستمرارية في التعهد والرعاية للشيء المحفوظ، وهذا ما جسده معنى الصيغة.

٣- المصيطر

المُصَيْطِر : المُسَلَّطُ على الشيء لِيُشْرِف عليه ويتعَهَّد أحواله ويكتب عمله(١) ولذا ضمنه بعض اللغويين معنى الرقيب والحفيظ القائم على الشيء(٢) وأصله من السَّطْر؛ لأن الكتاب مُسَطَّرٌ. أي صفّ من الكلمات متجاورة على امتداد واحد فتبدوا مسترسلة ممتدة(٣) . والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِرٌ، (٤) فكأن المسيطر امتد حتى طالهم وأمسكهم وضبطهم بقوته(٥)، وقلبت السين صادًا لمجاورتها للطاء في المخرج(٦).

وقد صرح الدكتور جبل بدلالة الكلمة صوتيا فقال:" السين للنفاذ الدقيق الممتد، والطاء لعظم الجرم مخالطًا أو متصلًا... وتعبر الراء عن الاسترسال، ويعبّر التركيب معها عن استرسال الدقيق المستغلظ امتدادًا طوليا كالسَطْر: الصف من الشجر والنخل وغيرها"(٧)، والمسيطر كذلك فهو قائم وحافظ ورقيب على ما يتعهد أحواله على الدوام، ولا يكون ذلك إلا لمن اتصف بالعظمة والقوة والجبروت؛ لذا نفى المولى . سبحانه وتعالى ـ هذا الوصف عن الرسول ﷺ لأنها تقتضي المراقبة على الدوام في جميع الأحوال

---

(1) الصحاح (٢/ ٦٨٤) مادة (س ط ر).
(2) ينظر: العين (7/ 210) ، المحكم (8/ 433) مادة (س ط ر).
(3)المعجم الاشتقاقي (2/ 1008) مادة (س ط ر).
(4) ينظر: المفردات صـ 409 مادة (س ط ر).
(5)المعجم الاشتقاقي (2/ 1008) مادة (س ط ر).
(6) ينظر: تهذيب اللغة (12/ 92) مادة (س ط ر).
(7)المعجم الاشتقاقي هامش (1004/2) مادة (س ط ر).

ومحاسبتهم على التجاوز وهذا في غير مقدور البشر ؛ لأنهم لا يملكون خَلْق الهداية في النفوس ، فكيف يملكون المحاسبة لهم؟! وهذا لا يكون إلا لله – سبحانه وتعالى . لذا نفاه عن رسوله ﷺ وجاء الوصف المنفي في القرآن الكريم على صيغة واحدة وهي :

(صيغة اسم الفاعل : مُصَيْطِر)

فقال عز من قائل :" ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (البينة : ٢٢).

خاطب المولى . سبحانه وتعالى . في الآية رسوله ﷺ للتذكير بوظيفته ونفى ما لا تقتضيه؛ لذا جمعت الآيتان الكريمتان بين وصفين أحدهما يستلزم نفي الآخر، حيث أمره عز وجل بالتذكير فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، ونفى عنه سبحانه الإكراه والإجبار على الإسلام بقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ۞ أي بمكره ومجبر لهم على الإيمان(١). وجاء هذا النفي تطمينًا وتسلية لقلب المصطفى ﷺ؛ لرفع التبعة عنه ﷺ بسبب عدم اهتدائهم وإيمانهم، وتقريرًا من الذات العلية بأنه ما قصر في نشر الدعوة ولا في نصحهم، لكن ما يرجوه منهم ليس في مقدوره ، وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور:" نفي كونه مُصيطرًا عليهم خبر مستعمل في غير الإخبار؛ لأن النبي ﷺ يعلم أنه لم يُكلّف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التَبِعة عنه من جَرّاء استمرار أكثرهم على الكفر "(٢).

(1) ينظر: جامع البيان (24/ 389)، بحر العلوم (3/ 575) مفاتيح الغيب (31/ 146).
(2)التحرير والتنوير (30/ 307).

وجاء الوصف المنفي على صيغة اسم الفاعل؛ دلالة على تجدد واستمرار هذا الحكم مع تجدد الحوادث، كما نلمح من الصيغة أيضا معنى المبالغة ، حيث إنه لما اشتد الحزن في قلب النبي ﷺ جاء السياق بما يدفع هذا الحزن من التطمين والتسلية وبنفس الدرجة أو يزيد، فجاء هذا الوصف ليثبت النفي على الدوام وزاد من تأكيد هذا النفي (الباء) الملحقة في أوله؛ لتأكيد هذا النفي بمبالغة ، مما يستلزم دوام التذكير والسير في نشر الدعوة دون توقف وهذا ما قررته الآية السابقة .

٤-((الهادي)

الهدى أصل دلالي يدل على الإرشاد والبيان والدلالة بلطف للوصول إلى المأمول، وخُصّ ما كان دلالة بـ(هديت)، وما كان إعطاء بـ (أهديت)[١]، يقول الإمام ابن فارس:" الهاء والدال والحرف المعتل أصلان، أحدهما : التقدم للإرشاد، والآخر: بَعْثَةُ لَطَفٍ، فالأول قولهم: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً،أي: تقدمته لِأُرشِده، وكل متقدم لذلك هادٍ ... والأصل الأخر: الْهَدِيَّةُ، ما أهديت من لَطَفٍ إلى ذي مودةٍ، يُقَالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدِي إِهْدَاء. وَالمِهْدَى: الطَّبَقُ تُهْدَى عَلَيْهِ"[٢].

والهُدى: البيان؛ لأن به يتبين النور من الظلام، وهو ضد الضلال، يقول الإمام ابن سيده:" الهدى: ضد الضلال ... وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (الليل : ١٢)، أي : إن علينا أن نبين طريق الهدى من

---

(1) يقال:"أهديت الهديّة، وهديت إلى البيت" المفردات صـ835مادة (هـ د ى).

(2) مقاييس اللغة (6/ 42) مادة (هـ د ى).

طريق الضّلال"[1] ، والهَادِي مُعلِّم ومُنصح ومُرشد ومُحب؛ لأنه ينير للمُتَعلِم طريق الظلام بقناديل المعرفة والهداية، وببذله النصح والإرشاد دائمًا، والمتعلم إما أن يستجيب للتعَلم أولا، فإن استجاب، فنقول: (اهتدى) باعتبار القبول، وإن لم يستجب فنقول:(لم يهتد) باعتبار عدم القبول[2].

وبالنظر للدلالة الإيحائية لهذه الكلمة (هدى) نجد أنها تؤكد على ما قرره علماء اللغة في معناها ، فالهاء برقتها وهمسها ورخاوتها [3]تدل على معنى اللطف واللين في الهداية، والدال بقوتها من الشدة والجهر[4] تدل على عظم الهادي وعلو قدره ورفعته، كما تدل على شدة الود والحرص والرأفة بالمهَدِى، وقوة أثرها في توجيه سلوك الإنسان، ويدل المدّ على ظهورهذا الأثر وبقائه في النفس وديموميته.

كما يؤكد المقطع الصوتي لهذه الكلمة وهو (ص ح / ص ح ح) على ذلك، فهي تحتوى على نوعين من المقاطع المفتوحة، وهو المقطع القصير الذي يدل بانفتاحه وقصره على اللطف في الهدية، والمقطع المتوسط المفتوح الذي يدل على علو الرفعة وعلو القدر، ويدل بانفتاحه أيضا على دوام وبقاء الأثر في النفس.

والهادي: اسم من أسماء الله– تعالى– فهو الذي يرشد الخلق إلى ما فيه صلاحهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، يقول الإمام ابن الأثير:" في أسماء الله

---

(1) المحكم (4/ 370) مادة (هـ د ى).

(2) ينظر: المفردات (1/ 836) مادة (هـ د ى)..

(3) ينظر: الرعاية صـ 155

(4) السابق صـ 201.

–تعالى– الهادي، وهو الذي بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته، حتى أقروا بربوبيته، وهَدَى كل مخلوق إلى ما لا بد منه في بقائه، ودوام وجوده"(١).

وذكر الإمام الراغب أن هداية الله للإنسان تكون على أربعة أنواع، فقال:" وهداية الله – تعالى . للإنسان على أربعة أوجه، الأول: الهداية التي عمّ بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، كما قال تعالى:﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ (طه: ٥٠)، والثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، كما قال تعالى:﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ (الأنبياء: ٧٣) ، النوع الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى كقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾ (محمد: ١٧)، النوع الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، كما قال تعالى:﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ (محمد: ٥) "(٢).

والإنسان لا يتمكن له من هذه الأنواع إلا النوع الثاني، وهي تعريف الطريق وبيان الحق من الباطل بالدعوة إلى الله؛ لذا قال سبحانه . وتعالى . في حق رسوله ﷺ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الشورى: ٥٢)، ونفى عنه ما عداها من أنواع الهدايات، فقال تعالى:﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ (النمل: ٨١) ، أي: لا تملك قبولهم للتعلم، إنما أنت منذر ومعلم ومنصح ومرشد وهادي إلى صراط مستقيم، أما القبول فلا،

(1) النهاية (5/ 253) مادة (هـ د ى)..

(2) ينظر: المفردات (1/ 835) مادة (هـ د ى)..

فهو لعزته وكبريائه وحكمته، يقول الإمام الراغب:" وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق"(١).

وقد جاء نفي الهداية عنه ﷺ بصيغ مختلفة،وهي ما يلي:

أولا: صيغة المضارع:

قال تعالى:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(القصص: ٥٦)

والهداية التي نفاها –سبحانه وتعالى– عن رسوله ﷺ هي هداية التوفيق وخَلق الإيمان، وشرح الصدر فهي له – سبحانه وتعالى–،وفي هذا يقول الإمام السعدي:" يخبر الله– تعالى– أنك يا محمد وغيرك من باب أولى – لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله –سبحانه وتعالى–يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله"(٢).

والآية نزلت على الرسول الله ﷺ ، عند امتناع أبي طالب من إجابته، إذ دعاه إلى الإيمان بالله حين حضرته المنية (٣)، ونفى الهداية هنا جاء تسلية لقلب سيدنا محمد ﷺ حتى يزيل ما به من تعب ونصب وكدر بسبب عدم

---

(1) المفردات (1/ 836) مادة (هـ د ى)..

(2) تفسير السعدي (1/ 620).

(3) ينظر : جامع البيان (19/ 598)، بحر العلوم (2/ 614).

إيمان عمه، فذكّره- سبحانه وتعالى- بأن الهدى بيده- سبحانه وتعالى- وأنه ﷺ ما قصر في الدعوة،وكل هذا كناية عن تفويض الأمر لله في ذلك.

وجاءت الهداية المنفية بصيغة المضارع الدّال على التجدد والاستمرار؛ لتجدد هذا الحكم واستمراريته بتجدد الأحداث والأشخاص والأزمان، وكذا استحضار الصورة ، كما أكد السياق القرآني هذا الحكم بـ (إن)المؤكد واسمية الجملة، دلالة على ثبوت ودوام هذا النفي ، وألمحت هذه المؤكدات مدى الحزن الذي كان يملأ قلب الرسول ﷺ فجاءت المؤكدات لتدفع هذا الحزن وذاك الألم، وكأنه سبحانه يقول : يا محمد لا تحمل نفسك فوق طاقتها، فهذه الهداية موكِلة إلينا، وما عليك إلا استمرار الدعوة بالحسنى والاجتهاد فيها؛ لأنها السبيل الموصل لهداية الخلق. وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" خاطب -سبحانه وتعالى – نبيه بما يسلي نفسه، ويزيل كمده، بأن ذكّره بأن الهدى بيد الله، وهو كناية عن الأمر بالتفويض في ذلك إلى الله – تعالى- فهو يخلق من يشاء قابلا للاهتداء في مدى معين وبعد دعوات محددة حتى ينشرح صدره للإيمان، فإذا تدبر ما خلقه الله عليه وحدده، كثّر في علمه وإرادته وجعل منه الاهتداء، فالمراد الهداية بالفعل"(١).

وهذا لا ينافي قول الله تعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢)؛ لأن المراد بالهداية المثبته هنا التي في مقدور البشر ، فتلك هداية الإرشاد والبيان والدعوة إلى الله ، يقول الإمام الرازي:" إنه – سبحانه وتعالى- قال في هذه الآية﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾، وقال في أخرى﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ولا تنافي بينهما فإن الذي أثبته وأضافه إليه هو الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق،

(1) ينظر: التحرير والتنوير (20/ 147).

وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٢) .

وزُيلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ دلالة على أنه سبق في علمه– سبحانه – من يهتد فيوفقه للإيمان، ومالم يهتد فلا يلق في نفسه القبول، و(أعلم) هنا مسلوب المفاضلة؛لأن علم الله لا يقبل التفاضل، بل المراد به هنا معنى (عليم)، يقول الإمام الطبري:" قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : والله أعلم من سبق له في علمه أنه يهتدي للرشاد، ذلك الذي يهديه الله فيسدده ويوفقه"(١).

ويأتي المقطع الصوتي ليرسم الدلالة الإيحائية لتلك الصيغة والتي تتكون من مقطعين من النوع المتوسط (ص ح ص / ص ح ح) في حالة الوصل، أحدهما من النوع المغلق وهو المقطع (ص ح ص) الذي يدل بخصائصة على الثبات والحصر، مما يدل على أن الهداية مقرها القلب فهي مستكنة ومحصورة فيه ، ثم يأتي المقطع المفتوح المتوسط (ص ح ح) الذي يدل بخصائصه على المبالغة، كما يدل أيضا بانفتاحه على ديموميتها وبقاء أثرهاوظهوره، وحرف النفي ينفي ذلك عن البشر ولو كان رسولا نبيا، فهي هدية من الله وليست في مقدور البشر .

---

(1) ينظر: جامع البيان (19/ 598).

ثانيًا: صيغة اسم الفاعل

جاء نفي الهداية عنه ﷺ بصيغة اسم الفاعل التي تقتضي التجدد والحدوث والمبالغة في الحدث، فقال تعالى:"﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ (النمل: ٨١) .

والهداية المنفية في هذه الآية هي النور الذي يقذفه الله في قلب عبده– وهي نور البصيرة – ليرى بها ألطاف رحمته والخير من الشر، مما يجعله داعيًا إلى اختيار الخير وتجنب الشر، فيؤخذ بيده إلى الجنة.

واستخدم السياق القرآني لهذه الصيغة صيغة اسم الفاعل دلالة على تجدد واستمرارية الحكم، ومتعلقه وهو تسلية قلب النبي ﷺ بأنه لم يقصر في دعوتهم بل الله – سبحانه–طبع على قلوبهم؛ لذا وصفهم السياق القرآني بالصمم والعمى، أي: أنهم لا يملكون التمييز ولا الاهتداء إلى الخير حتى بوصف الواصف.

كما أفادت صيغة اسم الفاعل دلالة إضافية وهي المبالغة لتضمين (هادي) معني (صارف) دلالة على حرصه ﷺ ورغبته الشديدة في هدايتهم ، وعلى شدة تمكن العمى في قلوبهم، واسمية الجملة تفيد المبالغة في نفي الهداية[1] ،وتسليط النفي عليها دلالة على ثباته وديموميته ، ثم جاءت (الباء) لتؤكد هذا المعنى وتقويه ، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن عاشور، فقال :" عدل عن تعليق ما حقه أن يعلق بالهدى (من)،فعلقه بما يقتضيه نفي الهدى من معنى الصرف والمباعدة (عن)، فضمن (هادي) معنى (صارف)، والمعنى(ما أنت بصارفهم عن ضلالتهم)، وتسلط النفي

(1) ينظر: روح المعاني (10/ 231).

على الجملة الاسمية دلالة على ثبات النفي، وأكد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي، لأنه لما أفضى الكلام إلى نفي اهتدائهم، وكان اهتداؤهم غاية مطمح الرسول ﷺ كان المقام مشعر ببقية من طمعه في اهتدائهم حرصا عليهم، فأكد له ما يقلع طمعه كقوله تعالى﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ "[1] .

٥- ((الوكيل))

التوكل في أصل الاستعمال: إظهار العجز والاعتماد على الغير، يقول الإمام ابن فارس:" الواو والكاف واللام أصل صحيح يدل على اعتماد غيرِكَ في أمرك، من ذلك الوِكلة، والتوكل وهو: إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وسمي وكيلا؛ لأنه يوكل إليه الأمر"[2]، وعليه فالوكيل كالولي؛ لأنه يلي صاحبه في القيام بمهامه ويعتمد عليه في حالة عجزه عن القيام بها، فهو ناصر له ومعين، وقد صرح الإمام الراغب بذلك فقال:" والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين، يقال: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيت له، ويقال: وَكَّلْتُهُ فَتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته"[3].

والوكيل فعيل بمعنى مفعول[4] لذا ضُمن معنى الثقة والتفويض فيمن أُسند إليه الأمر، ؛ لعجزه عن القيام به، يقال:" وَكَّلَ فلانٌ فُلَانًا، إِذَا اسْتكْفاه

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير (20/ 37).

(2) ينظر: مقاييس اللغة (6/ 136) مادة (و ك ل).

(3) المفردات (1/ 883) مادة (و ك ل).

(4) السابق نفسه.

أمرَه ثِقَةً بكفايَتِه، أَوْ عَجْزا عَنِ القِيام بِأمرِ نفسه"[١]،ويقال:" وكَلْته إليك أَكِلُه كِلَةً، أي: فوضته"[٢].

والوكيل اسم من أسمائه- سبحانه وتعالى -وصفة من صفاته، وهو المتولي جميع شؤون خلقه، فهو كافيهم ورازقهم وناصرهم ، يقول الإمام السعدي:" الوكيل: المتولي لتدبير خلقه بعلمه، وكمال قدرته وشمول حكمته، والذي تولى أولياءه فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور، فمن اتخذه وكيلا كفاه"[٣].

وعليه فالوكيل حفيظ؛ لأنه يحفظ حق غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ (الشورى : ٦) ، والحفيظ عليم؛ ((لأن الحفظ يتضمن إحاطة العلم بكل كبير وصغير ، دقيق وجليل، ومن علم شيئا جازى عليه، وهذا لا يكون إلا لله -سبحانه وتعالى- يقول الإمام ابن عاشور:" وقد استعمل (حفيظ)، و(وكيل) في استعمالهما الكنائي عن متقارب المعنى، فلذلك قد يفسر أهل اللغة أحد اللفظين بما يقرب من تفسير اللفظ الآخر كتفسير المرادف بمرادفه وذلك تسامح"[٤]؛ ولذلك نفى المولى – عز وجل – هذا الوصف عن سيدنا محمد ﷺ؛ رأفة وتحنانا به؛ لتضمنه معنى العظمة والقهر والمراقبه وهذا لا يكون إلا لله- تعالى- ، وجاء الوصف في القرآن على صيغة:

(1) تاج العروس(31/ 98) مادة (و ك ل).
(2) العين(5/ 405) مادة (و ك ل).
(3) تفسير أسماء الله الحسنى (1/ 244).
(4) التحرير والتنوير (25/ 31).

(فَعِيل : وَكِيل)

فقال عز من قائل ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (الأنعام: ٦٦) .

" أي: لست حفيظا على أعمالكم لأجازيكم بها، ولا آخذكم إلى الهُدى والإيمان ، إنما أنا منذر "(١).

وقد عبر السياق القرآني عن ذلك بصيغة فعيل التي تقتضي المبالغة؛ لإظهار مدى عتوهم وكفرهم وإغاظتهم له ﷺ، فرد سبحانه . وتعالى . كيدهم في نحرهم، وقد أوضح هذا المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" قوله تعالى:﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ إرغام لهم؛ لأنهم لما كذبوا وأعرضوا عن دعوته قد أغاظوه، فأعلمهم الله أنه لا يغيظه ذلك وأن عليه الدعوة، فإذا كانوا يغيظون فلا يغيظون إلا أنفسهم"(٢).

والآية تسلية وتسكينًا لحزن النبي ﷺ وتهوينًا على نفسه ؛ لينتفي عنه الغمّ الحاصل بسبب عدم إيمانهم، وتذكيرا له بوظيفته بأنه لم يبعث هاديًا بل داعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا (٣)

وقد صورت دلالة الصيغة مدى الحزن الذي ملأ قلب النبي ﷺ بسبب عصيانهم رأفة بهم ورحمة عليهم من عقاب الله لهم ، وأكد هذا المعنى حرف الباء الذي يدل على الاستغراق؛ لذا نفي سبحانه – عزوجل – هذه الصفة ومتعلقها بأقوى الصيغ عن حبيبه ﷺ تحنّنًا وتسلية لقلبه الشريف ،

(1) ينظر: زاد المسير (2/ 41).
(2) التحرير والتنوير (7/ 286).
(3)السابق (7/ 426).

دلالة على ثبوت ودوام النفي في كل آن، وفيه من الوعيد والتهديد الشديد لهؤلاء الكفار؛ لأن الله سيتولى أمرهم، كما قال تعالى:﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٥٤) ، وقد ألمح الإمام ابن عاشور إلى دلالة المبالغة في ذلك فقال:" قوله تعالى :﴿ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ زيادة لبيان أن الهداية والضلال من جعل الله –تعالى– وأن النبي غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلال؛ إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم ، أي : ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعيًا"[1]

(1) السابق (15/ 135).

المبحث الثاني

ما نفاه المولى ـ سبحانه ـ من صفات عن رسوله ﷺ

دفاعاً عنه وغَيْرة عليه

اصطفى الله – سبحانه وتعالى– من الناس رسوله ﷺ وأوحى إليه بشرعه؛ كي يبلغه للناس جميعا مبشرين ومنذرين؛ لقطع حججهم ، ودحض أباطيلهم، فأرسله بالبينات والهدى؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لكنه لاقى في سبيل نشر الدعوة إيذاءات كثيرة ،وافتراءات عقيمة ؛ لصدّه ﷺعند دعوته ، وصرفا للناس عن اتباعه، لكنه بلغ رسالته بصبرٍواحتسابٍ لا يقطعه عن ذلك مكر الماكرين أو أذى المعاندين أو كيد الكائدين، بل كان مخلصًا في نصحهم ، حريصًا كل الحرص على دعوتهم للإيمان وهدايتهم إلى طريق مستقيم ، وكفاه ربه أمر المستهزئين قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] ، ونفاه عنه ربه دفعًا وغَيْرة ، ومن هذه الصفات ما يلي:

١- (أذن))

تطلق الأذن في أصل الاستعمال على الجارحة المعروفة، ثم استعملت مجازا لمن كثر سمعه ، يقول الإمام الراغب:" الأذن الجارحة، وشبه به من حيث الحلقة أذن القدر وغيرها، ويستعار لمن كثر سمعه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٦١) ، أي: استماعه لما يعود بخير لكم"[1].

---

[1] المفردات (1/ 70).

ويعبر بها في الاستعمال عن العلم؛لأن بها يقع علم كل مسموع، يقال: أذِنَ بالشَّيْءِ ،إذا علم به[١].

والأُذن: الرجل يصدق كل ما يقال له، سُمِّي بذلك باعتبار آلته، وكأن جملته أُذُن، فيقال : رجل أُذُن وأمراة أذن، أي يسمع من كل أحد، وهذا يعد وصفًا ذميمًا؛ لأن مقصده أن صاحبه لا يستطيع أن يميز بين المقبول والمردود من القول، فليس كيسًا ولا فطنًا، يقول الخليل:" يقال للرجل: هو أُذُنٌ، وللمرأة: هي أُذُنٌ، وللقوم كذلك، أي يسمَعُ من كل أحد... ورجلٌ أُذَنَةٌ: يستَمعُ لكلِّ شيءٍ"[٢]، وعليه فهي صفة تستعمل في الذم وفي المدح.

وأصوات هذه الكلمة جميعها من الأصوات التي تمتاز بالقوة كالشدة في الهمزة [٣]والجهر في الذال[٤] والغنة في النون[٥]، مما يدل على قوة وظيفتها، وعِظم فائدتها، كما أننا لو أمعنا النظر في أصوات هذه الكلمة نلحظ أنها موزعة على مخارج الحروف بدءًا من الحلق وانتهاءً بمقدم الحنك، من الداخل إلى الخارج؛ حيث إنها الوسيلة التى بواسطتها يستطيع الإنسان أن يتواصل بها مع الآخرين، وينقل من خلالها ما يحويه صدره من معاني وأفكار إليهم ،فبها تقع عملية الفهم والإدراك ؛ ولذا فهي أصل لكل علم مسموع.

* وقد تفوه المنافقون بوصف الرسول ﷺ بهذه الصفة على سبيل الذم

---

[1] ينظر: المحكم (10/ 96)، وينظر المقاييس (1/ 75) .

[2] العين (8/ 199) مادة (أ ذ. ن).

[3] ينظر: الرعاية صـ 145، علم الأصوات صـ 176

[4] ينظر: علم الأصوات صـ 174.

[5] ينظر: الرعاية صـ 131، ومعجم الصوتيات صـ 18.

والإيذاء لا على سبيل المدح والإطراء، فنفى المولد سبحانه وتعالى- عنه الذم غَيْرة ودفعًا وأثبت له المدح تشريفًا ومدحًا ،وجاء الوصف في القرآن على صيغة واحدة ، وهي:

((فُعُل: أُذُن)

فقال تعالى:﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٦١).

ذُكر في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويعيبونه ويقولون: هو أُذُن، أي: يسمع كل ما يقال له ويصدقه دون إعمال نظر أو فكر[١]، وعلل الإمام الرازي لقولهم، فقال:" وغرضهم منه أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور، بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع، فلهذا سموه بالأذن كما أن الجاسوس يسمى بالعين"[٢]

ولكن الله . سبحانه وتعالى . نفى عنه ما أرادوه، وأثبت له عكسه، وهو أنه ﷺ أُذُن خيرٍ لا أُذُن شرٍ، قال الإمام الزمخشري:" قوله تعالى:﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾، أي : هو أذن كما قلتم إلا إنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه؛ لأنه فُسر لهم بما هو مدح له وثناء، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته"[٣]

وقد جاء وصفهم له (عليه الصلاة والسلام) ذمًا على صيغة

---

[1] ينظر: جامع البيان (4/ 324).

[2] مفاتيح الغيب (16/ 90).

[3] الكشاف (2/ 284).

المصدر مبالغة فيما يقصدون[١] وكذا نفى المولى – سبحانه– عنه قولهم على نفس الصيغة على سبيل المشاكلة في قولهم ومضارعة القول بالقول وبنفس الدرجة ؛ فهم بالغوا في ذمه ﷺ بأنه أُذُن، فوصفه – سبحانه وتعالى– بنفس الصيغة مبالغة في خيريته ومدحه، وقد صرح الإمام أبو السعود بدلالة الصيغة ، فقال:" قوله تعالى:﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ من قبيل (رجل صدق) في الدلالة على المبالغة في الجودة والصلاح؛ كأنه قيل: نعم، هو أذن ولكم نعم الأذن، ويجو أن يكون المراد: أُذُن في الحق والخير، وفيما ينبغي سماعه وقبوله لا في غير ذلك"[٢]

وعدل السياق القرآني عن الإضمار إلى الإظهار في وصفه ﷺ بالنبي؛ إظهارًا لبشاعة قولهم وتنزيهًا له ﷺ بالثناء عليه بعزِّ النبوة ، يقول الإمام ابن عاشور:" والتعبير بالنبي، إظهار في مقام الإضمار؛ لأنه قبله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (التوبة : ٥٨) فكان مقتضى الظاهر أن يقال: (ومنهم الذين يؤذونك) فعدل عن الإضمار إلى الإظهار في وصف النبي؛ للإيذان بشناعة قولهم، ولزيادة تنزيه النبي بالثناء عليه بوصف النبوة، بحيث لا تحكى مقالتهم إلا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه ، والتعريض بجرمهم فيما قالوه"[٣] .

وآثر السياق القرآني صيغة المضارع الدال على الاستقبال في لفظ الإيذاء ، دلالة على استحقاق مؤذيه العذاب الأليم إن استمروا على ذلك،

---

[1] يقول ابن جني:" إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل. وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه. ويدل على أن هذا معنى لهم، ومتصور في نفوسهم". الخصائص (3/ 262)، وينظر: شرح المفصل لابن يعيش (2/ 236)، معاني النحو (3/ 190).

[2] إرشاد العقل السليم (4/ 77).

[3] التحرير والتنوير (10/ 241).

فإن تابوا وأقلعوا يُغفر لهم ما قد سلف، يقول الإمام أبو السعود:" قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦١) بما نقل عنهم من قولهم :(هو أذن) ونحوه، وفي صيغة الاستقبالِ المُشعِرة بترتب الوعيدِ على الاستمرار على ما هم عليه إشعارٌ بقبول توبتِهم كما أفصح عنه قولُه تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٤] "[1]

وللمقطع الصوتي دور مهم في تجسيد معنى الوصف ، حيث إن الصفة تتكون من (ص ح / ص ح/ ص ح) ثلاثة مقاطع متوالية من النوع الصغير المفتوح، مما يدل بسرعته على المتابعة والاستمرارية في وظيفتها، وهذا يدل على عظيم نفعها؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم شيئا في الغالب إلا بالسماع فهو وسيلة مهمة من وسائل التميز والإدراك، ولذا قال سبحانه وتعالى في ذم الكافرين﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٩٥(، فتكرار المقطع يدل على المبالغة في وظيفتها وكذا نفع النبي ﷺ وخيريته.

٢- <u>الافتراء</u>

أصل الفري في اللغة القطع والشق[2]، يقول الإمام ابن فارس:" الفاء والرَّاء والحرف المُعتَّل عُظْمُ الباب قَطعُ الشَّيء، ثم يُفرَّعُ منه ما يقاربه من ذلك "[3] ، ويستخدم في اللغة للإصلاح والإفساد، وعليه فاللفظ من الأضداد، يقول الإمام أبو الطيب اللغوي :" فَرَيْتُ الأديمَ، أفريه فَريًا، إذا

---

[1] إرشاد العقل السليم (4/ 78).

[2] ينظر : العين (8/ 280) ، ومقاييس اللغة (4/ 496) مادة (ف ر ى)

[3] ومقاييس اللغة (4/ 496) مادة (ف ر ى)

قطعته وشَقَقْته، وفَرَيْتُ المَزادة أفريها فَرْيًا، إذا ضممتُها وخرزتُها، فالفاري: القاطع، والفاري: الخارز "[١].

وجعله الدكتور/ جبل أصل في الإصلاح فرع في الإفساد من قبيل التجاوز، فقال:" المعنى المحوري :شق أو فصل منه تهيئة(أي: شق أو فصل لصَلاح) كَفْري الدِلو مع تهيئته ليكون مَزَادة... ومن تعميم ذلك بالتجاوز عن قيد التهيئة، فراه يَفْرِيه، شقه صالحًا أو فاسدًا"[٢]، ومنه الافتراء وهو في الإفساد أكثر[٣] والفَرْي : الكذب ، يقال:" فَرَى يَفْرِي فَرْيًا، وافْتَرى يَفْتري افتراء، إذا كذب، وهو افتعال منه "[٤]، ويقال:" فَرَى الكذب وافتراه: اختلقه ، أي: استخرجه أو ابتكره من عند نفسه وهيّأه "[٥]

وأصوات الكلمة لها دور مهم في رسم المعنى، بل هي اللبنة الأولى لتجسيد المعنى، فتعبر الفاء بهمسها ورخاوتها على النفي والإبعاد، وهذا يوضح النفورمن الوصف وصاحبه وإقصائه، والراء بتكرارها تعبر عن الإسترسال، فكأن هذا الوصف ملازم لصاحبه لا ينفك عنه، فهو خُلُق له في كل الأحوال ووصف ثابت معروف به فصاربها علما، وتؤكد ذلك الياء بامتدادها لتعبر عن المبالغة في الفِرية وعظمها.

---

(1) الأضداد صـ 351.

(2) المعجم الاشتقاقي (1648/3) مادة (ف ر ى).

(3) المفردات صـ 634 مادة (ف ر ى) .

(4) النهاية في غريب الحديث (3/ 442) مادة (ف ر ى).

(5) المعجم الاشتقاقي (1648/3) مادة (ف ر ى).

ولقبح هذا الوصف نفاه سبحانه عزوجل عن رسوله ﷺ في معرض اتهام المشركين له؛ تنزيها ودفعا وتبرئة له صلى الله عليه وسلم، وجاء النفي على صيغة المصدر (الافتعال).

(الافتراء)

قال تعالى :" ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس : ٣٨)

وجاءت الآية ردًا على المشركين في اتهامهم الرسولﷺ باختلاق القرآن وافترائه من عند نفسه، فأمرهم - سبحانه وتعالى- أمر تعجيز أن يأتوا بسورة من مثله في البلاغة وحسن الارتباط، وجزالة المعنى على وجه الافتراء، فإن عجزتم عن ذلك دلّ عجزكم على بطلان قولكم وقبح افترائكم[1].

وجاء النفي في الآية على صيغة المصدر (الافتعال) مبالغة[2] في تشنيع قولهم وقبح افترائهم ، وقد ألمح إلى معنى الصيغة الإمام ابن عطية، فقال:" هذا نفي قول من قال من قريش إن محمدًا يفتري القرآن وينسبه إلى الله . تعالى . وعبر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر"[3]، وقد ضمنت (أم) الاستفهام الإنكاري التَّعْجِيبيّ، تعجبًا وإنكارًا لقولهم، بعد ما تبين لهم من الدلائل على صدقه ﷺ وبراءته من الافتراء[4]

---

[1] ينظر: جامع البيان (15/ 90) ، الهداية إلى بلوغ النهاية (5/ 3268)، روح المعاني (6/ 111).

[2] ينظر: المفصل في صنعة الإعراب صـ 373، شرح المفصل لابن يعيش (1/ 64)، شذا العرف صـ 33.

[3] المحرر الوجيز (3/ 119).

[4] ينظر: التحرير والتنوير (11/ 170).

نلاحظ مما سبق أن صيغة المصدر (الافتعال) أفادة المبالغة في المعنى من جهتين:

الأولى: تبرئته ونفي الكذب عنه ﷺ أصلا كما قال تعالى﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾، ومن لوازم ذلك تشريفه وتنزيهه ﷺ من الافتراء فضلا عن تقدم الدلائل التي تؤكد ذلك، حيث تحداهم . سبحانه وتعالى . وأمرهم أمر تعجيز بأن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، وهذا أقوى دليل على كذبهم وافترائهم.

الجهة الثانية: تبشيعًا واشمئزازًا من حماقة قولهم، وإعظامًا لفريتهم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعقيبها: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩] ، وفي ذلك يقول الإمام السمر قندي:" يعني : جزاء المكذبين لرسولهم، فيه تعزية للرسول ﷺ، وحثّ له على الصبر، وتخويف لهم بالعقوبة " [(1)] .

وبالنظر للمقطع الصوتي لهذه الصيغة نجده يتكون من (ص ح ص / ص ح / ص ح ح) مقطعان من النوع المغلق يتوسطهما مقطع من النوع المفتوح الصغير، فانغلاق المقطعين في بداية الوصف ونهايته دليل على المبالغة في الوصف وتمكين صاحبه منه، فهو خُلق ثابت له وسجية فيه.

[(1)] بحر العلوم (2/ 117).

٣- ((الجنون))

يدل المعنى المركزي لمادة (ج ن ن)على الستر والخفاء، يقول الإمام الراغب:" أصل الجِنّ: ستر الشيء عن الحاسة "[١]

وسبقه إلى ذلك الإمام ابن فارس، فقال:" الجيم والنون أصل واحد وهو السَّتْرُ والتسَتُّرُ "[٢] ، وعليه فجميع ما يشتق من هذا الجذر يدور حول هذا المعنى، فمن ذلك: " الجنُّ: جماعة وَلَدِ الجانِّ، سُمّوا بذلك لأنهم مستورون عن البَصَر فلا يرون[٣]، ومنه أيضا الجَنَان: وهو القلب لاستتاره وخفاءه في الصدر[٤]، وكذا سُمي الطفل جنينًا قبل الولادة؛ لاستتاره في بطن أمه[٥]، ويقال:" أجَنَّه الليل وجنَّ عليه الليل، إذا أظلم حتى يستره بظلمته"[٦]، ومن ذلك الجَنَّة: وهي الأرض ذات الشجر والنخل؛ سُميت بذلك لأن الشجر بورقه يسترها عن أعين الناس[٧]، والجَنَّة: ثواب أهل الإيمان في الآخرة؛ سميت بذلك لاستتار نعيمها عن أهل الدنيا[٨] ، والجِنَّة : الجنون، والجنون: ستر العقل وغيابه عن وظيفته وهي التمييز، يقول الإمام الراغب:" والجِنّة: الجنون ، وقوله تعالى: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾(سبأ: ٤٦)، أي :

---

(1) المفردات صـ 203 مادة (ج ن ن).

(2) المقاييس (1/ 421) مادة (ج ن ن).

(3) ينظر :العين (6/ 20)، المحكم (7/ 212) مادة (ج ن ن).

(4) ينظر: المحكم (7/ 212) مادة (ج ن ن).

(5) ينظر: الجمهرة (1/ 93) مادة (ج ن ن).

(6) العين (6/ 20)مادة (ج ن ن).

(7) ينظر: الجمهرة (1/ 93) ، المقاييس (1/ 421) مادة (ج ن ن).

(8) ينظر: المقاييس (1/ 421) مادة (ج ن ن).

جنون، والجنون: حائل بين النفس والعقل، وجُنّ فلان، قيل: أصابه الجِنّ"[١].

وأصوات الكلمة تترجم هذا الخفاء والستر، فالجيم والنون من الحروف المجهورة الشديدة[٢] ، مما يدل على قوة الخفاء،لا سيما وأن النون مكررة مما يدل على شدتة الستر والتستر أيضا، ويعبر الدكتور جبل عن معنى الجذر فيقول:" «سَتْرُ الشيء بكثيف يعلوه أو يكون الشيء في أثنائه»[٣].

وقد نفي . سبحانه وتعالى . عن نبيه ﷺ هذه الصفة؛تنزيهًا وتشريفًا ومدحًا، وتسلية لقلبه الشريف مما رماه به المشركون ظلمًا وبهتانًا، كما قالوا: إنه شاعر وساحر وكذاب (حاشا لله)، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجرات ٦)فرموه بذلك لأنه جاء بما يخالف معتقداتهم وما لا تقبله عقولهم وذلك في عرفهم غير عاقل[٤]، فنزه المولى . سبحانه وتعالى . رسوله من هذا الوصف دفاعًا عنه وغَيْرة عليه ؛ حيث إنه ينافي النبوة والرسالة التي تقتضى الحكمة والفصاحة الكاملة ورجاحة العقل والبراءة من كل عيب، والله يعصم أنبياءه﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾(الأنعام: ١٢٤) وجاء الوصف المنفي على الصيغ الآتية :

---

(1) المفردات (1/ 204) مادة (ج ن ن).

(2) ينظر الرعاية صـ 176.

(3) المعجم الاشتقاقي (1/ 338) مادة (ج ن ن).

(4) ينظر: التحرير والتنوير (14/ 17).

أولا: الوصف باسم المصدر (الجِنة)

قال تعالى: "﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف : ١٨٤).

ذُكر في سبب نزول الآية الكريمة أن النبي ﷺ صعد ذات ليلة على جبل الصفا، فدعا قريشًا بأسمائهم فردًا فردًا إلى عبادة الله، فقال الجُهَّال من أهل مكة: (إن صاحبكم لمجنون أو به جِنّة) [١] .

والجِنّة: حالة من الجنون كالجِلسة والرِّكْبة[٢]، وهي: الخبال الذي يعتري الإنسان من أثر مَسّ الجِنِّ أو تخبيط جِنّة [٣].

وقد نفى سبحانه . وتعالى . هذا الوصف عن رسوله ﷺ بصيغة اسم المصدر(جِنّة) مصدر[٤]مبالغة في ذمهم وتسفيهًا لعقولهم وتجهيلا لأقوالهم، ويؤكد ذلك الاستفهام التوبيخي التي صُدرت به الآية الكريمة ، فهو باعث لهم على التفكر في أمر الرسول ﷺ وانتفاء الجِنّة عنه[٥]،كما تومئ الصيغة بدليل لا شبهة فيه بكذبهم، لمعرفتهم بجميع خصائصه التي تنافي افتراءهم، وذلك لطول عهدهم به ﷺ ويؤكد ذلك الوصف بـ(صاحب) وهو كناية عن التَّبَصُّر في خَلْقِة، وفيه تنبيه على أن حاله معلوم لهم ولا يلتبس عليهم شيء من خُلُقه وعقله ويعلمون يقينيًا أنه ليس بمجنون؛ وذلك لشدة

---

[1] ينظر: بحر العلوم (1/ 571)، مفاتيح الغيب (15/ 419).

[2] مفاتيح الغيب (15/ 419).

[3] ينظر: البحر المحيط (5/ 234).

[4] فتح القدير للشوكاني (2/ 309).

[5] المفردات (1/ 204) مادة (ج ن ن).

مخالطتهم له، إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه[١]؛ لذا اتصلت الكلمة (صاحبكم) بالباء التي تدل على الملابسة والملازمة [٢] كما أن دخول (من) على الوصف يدل على براءته ﷺ وتنزيهه من أي نوع من أنوع الجنون؛ حيث إنه ﷺ كانت تغشاه حالة عجيبة عن نزول الوحي، فيتغير وجهه الكريم ، ويَصْفَرُّ لونه، فكان الجُهَّال من أهل مكة يقولون إنه مجنون،فبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه ليس به أي نوع من أنواع الجنون من مسّ جنَّة أو تخبيط جِنّة[٣].

وكل ذلك يدل على كمال تنزيهه وتشريفه ﷺ وتبرئته مما رماه به الجُهّال من أهل مكة، ويثبت أن مقصدهم من هذه الفرية العناد والمكابرة والبعد عن الإيمان؛ لأنهم لو تدبروا حاله لآمنوا لكنهم بعيدين عن الإيمان، وقد أوضح ذلك الإمام ابن عاشور، فقال:" في هذا استغباء أو تسفيه لهم بأن حالَهُ لا يلتبس بحال المجنون؛ للبون الواضح بين حال النذارة البينة وحال هذيان المجنون، فدعواهم جُنُونه إما غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإما مكابرة وعناد وافتراء على الرسو ل "[٤] وهذا ما أكده الوصف بالمصدر .

ثانياً : الوصف باسم المفعول (مجنون):

قال تعالى:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم: ٢).

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير (30/ 157).

[2] السابق (9/ 194).

[3] ينظر: مفاتيح الغيب (15/ 419)، والبحر المحيط (5/ 234).

[4] التحرير والتنوير (9/ 194).

نزلت هذه الآية ردًا على قول المشركين في حقه ﷺ قال تعالى:﴿ ٱلرَّجِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر: ٦) ، فأقسم – سبحانه وتعالى– بـ (إن) والقلم وما يكتب من الأعمال ببراءته وتنزيهه ﷺ مما يقولون[١]، يقول الإمام القشيري:" أزال الله –سبحانه وتعالى– عن نبيه ﷺما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء (إنه لمجنون)، ومحققًا ذلك بالقسم عليه، وهذه سنة الله –تعالى– مع رسوله ﷺفيما يقول الأعداء فيه، يرده –سبحانه–عليهم بخطابه وعنه ينفيه"[٢].

وفي التعبير بقوله تعالى:﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ امتنان على الرسول ﷺ؛ لأن هذا الصفة المذمومة زالت عنه بانعام الله عليه بالنبوة وما تقتضيها من الفصاحة والعقل الكامل والاتصاف بكل مَكْرُمَة[٣]، وهي جواب للقسم جيء به مبالغة في انتفاء هذا الوصف عنه ﷺ، يقول الإمام أبو حيان:" ويظهر أن﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾قسم اعْتُرض به بين المحكوم عليه والحُكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم عنه ﷺ [٤] كما نلمح من القسم الوعيد الشديد لهؤلاء المشركين إن لم ينتهوا عن قولهم، يقول الإمام الرازي:" قوله تعالى:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾، أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل وأنت بحمد الله لست مجنونًا،

---

(1) ينظر: تفسير البغوي (8/ 178).

(2) ينظر: ينظر: مفاتيح الغيب (30/ 600).

(3) ينظر: لطائف الإشارات (3/ 616).

(4) البحر المحيط (10/ 235).

ومعناه: أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه"[١].

وجاء نفي الصفة عنه ﷺ على صيغة الجملة الاسمية دلالة على ثبوت ودوام ذلك النفي وإثبات النبوة له، وجيء بالباء في قوله (بمجنون) لتوكيد الحكم وتقويته، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور فقال:" وقد أُجيب قولُهم وتأكيدهم ذلك بحرف (إنَّ) ولام الابتداء﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١] بمؤكدات أقوى ممّا في كلامه إذ أُقْسِم عليه، وجي بعد النفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده، وبالجملة الاسمية منفية لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر، أي تحققه، فهذه ثلاث مؤكدات"[٢].

كما أن الوصف المنفي جاء على صيغة اسم المفعول الدالة على الحدث ومفعوله، كما تدل على الحال والاستقبال، دلالة على استمرارية النفي عنه ﷺ، وفي ذلك تبشيعا لافترائهم، وتسفيها لقولهم. وقد نفى القرآن ذلك عنه في سياق آخر فقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ [التكوير: ٢٢] .

وآثر السياق التعبير بلفظ (صاحب) في قول تعالى﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ (التكوير: ٢٢) بيانا لكذبهم وقبح قولهم؛لأنهم يعلمون علمًا لا شبهة فيه أنه ليس كذلك، يقول الإمام ابن عاشور:" وصف (صاحب)

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب (30/ 60).

(2) التحرير والتنوير (29/ 61).

كناية عن كونهم يعلمون خُلُقه وعقله، ويعلمون أنه ليس بمجنون؛ إذ شأن الصاحب أن لا يخفى دقائق أحواله على صاحبه"[١] .

كما أن المقطع الصوتي لهذه الصيغة (مجنون) (ص ح ص / ص ح ح / ص ح ص) تتكون من ثلاثة مقاطع، مقطعان من النوع المغلق المتوسط، يتوسطهما مقطعًا من النوع القصير المفتوح، وانغلاق المقطعين يدل على أن هذه الصفة ملازمة لصاحبها وسجية فيه ، ثم يأتي المقطع القصير المفتوح بسرعته ليدل على هذا الوصف لا يظهر إلا من خلال تصرفات المتصف به، والنفي يمحو كل هذه المعاني.

٤- السحر

السِّحر في أصل اللغة يدل على الصّرف، يقول الإمام الأزهري:" وأصل السِّحْر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره... والسحر سمي سِحْرًا؛ لأنه صرف الشيء عن وجهته"[٢]، وقيل: أصل السحر الخديعة. يقال: سحره:

إذا خدعه [٣]، فهو عمل يقرب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، ووسيلته خداع الحواس والتخييلات الغير حقيقية؛ ومنه الأُخُذة التي تأخذ العين[٤] كما قال تعالى : ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف : ١١٦).

---

(1) السابق (30/ 157).

(2)التهذيب (4/ 169) مادة (س ح ر).

(3)شمس العلوم (5/ 3007) مادة (س ح ر).

(4)ينظر: العين (3/ 135)، المعجم الاشتقاقي (2/ 678) مادة (س ح ر).

وفي الاصطلاح:إظهار خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة بمباشرة أعمال مخصوصة فيها التَّعْلِيم والتلمذه[١]، وعليه فالسحر من الأفعال المذمومة والتي يذم فاعلها قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾ (البقرة: ١٠٢)،، والمسحور: الذاهب العقل[٢] ، ومن السحر ما هو محمود وهو السحر الكلامي ومنه قول الرسول ﷺ " إن من البيان لسحرًا "،، ومعناه:" أَن يمدح الْإِنْسَان فَيصدق فِيهِ حَتَّى يصرف قُلُوب السامعين إِلَيْهِ، ويذمه فَيصدق فِيهِ أَيْضا حَتَّى يصرف قُلُوبهم إِلَيْه"[٣] ، والسَّحْرُ: هو ما لُصِقَ بالحلقوم والمريء من أعلى البطن، ويقال: بل هي الرئة [٤].

وبالنظر إلى أصوات الكلمة (سحر) نجد أنها تبدأ بحرفين من الحروف المهموسة الرخوة وهما (السين والحاء) التي تناسب معنى التلطف والخفاء، فالسحر تخييل وخديعة ، يقول الإمام الفخر الرازي: "السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفي سببه ويُتَخَيَّل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع "، وجاءت الراء المكررة في نهاية الكلمة للتعبير عن الاسترسال في الفعل وتكراره، فالسِّحر حرفة وصنعة ، كما تُظهرأيضًا المبالغة في متعلق الفعل؛ حيث إنه يصور الحق في صورة الباطل والعكس

(1) جامع العلوم في اصطلاح الفنون (2/ 119) مادة (س ح ر).
(2)شمس العلوم (5/ 3007) مادة (س ح ر).
(3) التهذيب (4/ 169)، والكليات صـ 511 مادة (س ح ر).
(4) مقاييس اللغة (3/ 138) مادة (س ح ر).

لذا ذم السحر وذم فاعله ، قال تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

وقد اتهم المشركون النبي ﷺ بهذا الوصف على سبيل الذم لا المدح فوصفوه مرة بأنه ساحر وآخرى بأنه مسحور ؛ تنفيرا وصرفًا للناس عنه وعن ما جاء به، وجاء الوصف على صيغ، كالأتي:

أولا: الوصف باسم الفاعل

قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ٢]

في هذه الآية الكريمة وصف المنكرون لوحدانية الله رسوله ﷺ بأنه ساحر، وأن ما جاء به يعد من قبيل السحر؛إظهارًا لعجزهم عن معارضته وتأكيدًا على عِظم محل القرآن عندهم، لكمال فصاحته، فجرى في ظنهم السيء مجرى السحر، مما يثبت أن هذه الدعوى جاءت منهم على سبل المكابرة والعناد والكفر(١) وهذا ما أومأت إليه صيغة فاعل من إفادة المبالغة في عجزهم لكمال فصاحة ما جاء به من التنزيل، وقد أوضح هذا المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" إن وصفهم إياه بالسِحْر ينبئ بأنهم كذّبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يَدَّعُوهُ هَذَيَانًا وباطلا، فهرعوا إلى ادِّعائِه سِحْرًا، وقد كان في عقائدهم الضّالة أن من طرائق السِحْر أن يقول السَّاحر أقوالاً تَسْتَنْزِلُ عقول المسحورين، وهذا من عجزهم من الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه"(٢)

(1)ينظر: مفاتيح الغيب (17/ 187)، البحر المحيط (6/ 11).

(2)التحرير والتنوير (11/ 86).

وفي سياق الآيه الكريمة جاء الوصف بساحر، وفي آية أخرى جاء الوصف بمسحور. كما سيأتي . وهذا تخبط منهم وعجز عن ردّ ما جاء به من المعجزات والعقائد والتشريعات، تنفيرا منه ومما جاء به ؛ لعلمهم بأنه الحق، فوصفوه بأنه ساحر، حيث سحر قلوب الناس وفرق بين القريب وقريبه في ظنهم القاصر(١)، فأرادوا بالوصف التمويه على الناس، كقول فرعون لسحرته حين آمنوا "﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: ٧١] وأكدوا الوصف بالجملة الاسمية، وبإن المؤكدة واللام ، وبإشارة بـ (هذا) إلى النبيﷺ، مما يدل على أنهم عجزوا عن إدراك ما جاء به ومجاراته، ورده وصدّ الناس عنه ، وعن علمهم بأنه الحق، وأن الدافع إلى قولهم هذا هو العناد والكفر، وشبيه بالآية الكريمة قوله تعالى : ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾ **[ص: ٤]** ، فوصفوه بأنه ساحر؛ لأنه فرق بين الرجل وزوجته والوالد وولده، و ﴿كَذَّابٌ ﴾ أي: مدعي النبوة،ووصفوه بهذين الوصفين لعلمهم بأنه رسول الله، وأرادوا بذلك أن يغروا أتباعهم عليه كما أغرى فرعون قومه على **موسى لئلا يتبعوه، كما قال تعالى:** ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠] (٢)، وعلل الإمام ابن عاشور لادعائهم بقوله:" وجعلوا حاله سحرًا وكذبًا؛ لأنهم لمّا لم تقبل عقوُلُهم ما كلّمهم به زعموا ما لا يفهمون منه مثل كونه الإله واحدًا أو كونه يعيد الموتى أحياء سِحْرًا،إذ كانوا يألفون من السحر أقوالاً غير مفهومه" (٣).

(1)ينظر: الجواهر الحسان (3/ 234)، البحر المحيط (6/ 11).

(2)ينظر: ينظر: تأويلات أهل السنة (8/ 599).

(3) التحرير والتنوير (23/ 210).

وهذا ما أشارت إليه صيغة اسم الفاعل في (ساحر، كذاب) من المبالغة في تسفيه عقولهم ودحض افترائهم، وتأكيدًا على كفرهم وعنادهم؛ إذ لا كفر أبلغ من أن يصفوا من اصطفاه الله لحمل رسالته وتبليغ دعوته بأنه كاذب ساحر، ويتعجبون من التوحيد وهو الحق الأبلج ولا يتعجبون من الشرك وهو باطل لجج [1].

ثانيًا : الوصف باسم المفعول

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: ٤٧] .

وضحت الآية الكريمة السبب الذي من أجله اجتمع المشركون حول النبي (صلى الله عليه وسله) ليستمعون إليه وهو يقرأ القرآن الكريم ، وأظهرت أن السبب في ذلك هو الهزء بالنبي ﷺ وبما جاء به، لا الاستماع والتدبر والتفهم، بل ليتلقفوا ما في القرآن بما ينكرونه؛ ولذا وصفهم القرآن بصيغة المصدر في قوله: "وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ" مبالغة في كثرة محادثتهم سرًا تشاغلا عن الرسولﷺ فاستماعهم ومناجاتهم لم تكن للتدبر وإنما للطعن والظلم والتجبر، فوصفوه ﷺ بوصف يناسب اعتقاتهم وسفاهة عقولهم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ ، وذكر العلماء ثلاثة أراء في المراد من هذا الوصف في سياق الآية الكريمة:

---

(1)ينظر: مدارك التنزيل (3/ 144).

الأول: أنه من السِّحْر، وهو " تخيل الفِعْل وليس فعلا، وتخيل القول وليس قولا، فهو صرف للنظر عن إدراك الحقائق"[١]، فأرادوا بذلك أنه سُحر فاختلط عليه عقله وزال عن حدّ الاستواء، واحتاج إلى طب الأطباء؛ تنفيرا منه (صلى الله عله وسلم) وصرفًا للناس عن دعوته[٢]، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ﴾ [سبأ: ٨] ، يقول الإمام ابن عطية:" وقوله ﴿ مَّسۡحُورًا ﴾ فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم، وأقواله الوخيمة رأيهم بما يكون من المسحور الذي قد خبل السِّحر عقله وأفسد كلامه، وتكون الآية على هذا شبيهه بقول بعضهم ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ﴾ "[٣] .

الثاني: أنه بمعنى مخدوع، فكأنه بالسحر صار مخدوعًا؛ أي: خدعه غيره[٤] وقد صرح بذلك الإمام الرازي فقال:" قال مجاهد: مسحُورًان أي: مخدوعًا؛ لأن السِّحر حيلة وخديعة، وذلك لأن المشركين كانوا يقولون: إن محمدًا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات، وأولئك الناس يخدعون بهذه الكلمات"[٥] وتكون الآية شبيهة بقول بعضهم ﴿ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥] .

الثالث: "أنه له سَحَر، أي: رئة، فهو بشر مثلكم يأكل ويشرب"[٦].

(1)خواطر الإمام (14/ 8581).

(2) ينظر: بحر العلوم (2/ 312)، النكت والعيون (3/ 247)، البحر المحيط (7/ 58).

(3) المحرر الوجيز (3/ 461).

(4) ينظر: بحر العلوم(22/ 312)، وزاد المسير (3/ 29)

(5) مفاتيح الغيب (20/ 351).

(6) النكت والعيون (3/ 247).

واستبعد العلماء هذا الرأي[1].، واستدل الإمام ابن الجوزي على ذلك فقال:" ويدل على ذلك قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨] لأنهم لو أرداوا رجلا ذا رئة لم يكن في ذلك مثل ضربوه"[2].

وجاء الوصف في الآية الكريمة على صيغة اسم المفعول ؛ لأنهم يريدون أن يثبتوا أنه لا يستطيع أن يميز الحق من الباطل، ولا يعرف طريق الصواب بل يحتاج إلى من يوجهه ويطببه، فكيف يتأتي له . في اعتقادهم الفاسد . أن يرشد الناس إلى طريق الصواب، تنفيرًا منه صلى الله عليه وسلم وصرفا للناس عما جاء به، على الجانب الآخر نلمح من الوصف الذي ألصقوه بالنبي ﷺ كذبًا وافتراءً، أنه يدل على إفلاس حجتهم ، ودليل على غبائهم العقدي"[3]؛ للبون الواضح بين حال النبي ﷺ وحال المسحور، وأنهم لو تدبّروا لآمنوا ؛ لذا وصفهم المولى سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾؛ ليدل على أن الدافع إلى قولهم هذا هو الشرك؛ لأن الشرك ظلم "[4].

٥- ((شاعر))

تدور مادة (ش ع ر) حول أصليين دلاليين أحدهما يدل على ثباتٍ

---

(1) ينظر: المحرر الوجيز (3/ 461)، مفاتيح الغيب (20/ 351)، البحر المحيط (7/ 58).

(2) زاد المسير (3/ 29).

(3)ينظر: خواطر الإمام (14/ 8581).

(4)ينظر: التحرير والتنوير (15/ 119).

كالشَّعْر، والآخر يدل على عِلْم وعَلَم ، كالشِّعار وشاعر، يقول الإمام ابن فارس:" الشِّينُ وَالْعَيْنُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ مَعْرُوفَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى ثَبَاتٍ، وَالْآخَرُ عَلَى عِلْمٍ وَعَلَمٍ.

فَالْأَوَّلُ الشَّعَرُ، مَعْرُوفٌ ... وَالْبَابُ الْآخَرُ: الشِّعَارُ: الَّذِي يَتَنَادَى بِهِ الْقَوْمُ فِي الْحَرْبِ لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَالْأَصْلُ قَوْلُهُمْ شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا عَلِمْتَهُ وَفَطِنْتَ لَهُ "[١] ، وعَدَّ الإمام الراغب المعنى الثاني من المجاز، فقال:" الشَّعْرُ معروف ... وشَعَرتُ أصبت الشَّعْر ، ومنه استعير: شَعَرْتُ كذا، أي: عَلِمت عِلمًا في الدقة كإصابة الشَّعْر"[٢]؛ لذا سمي الشاعر شاعرًا؛ لفطنته وذكائه، حيث إنه يفطن لما لا يفطن له غيره[٣]،وعليه " فالشِّعْر اسم للعِلم الدقيق في قولهم: ليت شعري، وصار في التعارف اسمًا للموزون المقفى من الكلام، والشَّاعر للمختص بصناعته"[٤].

ولو تأملنا دلالات أصوات هذه الكلمة لوجدنا أنها ترسم معنى اللفظ، فالشين بهمسها وخفائها[٥] تدل على الدقة في العلم والفطنة، وبانتشارها تدل على زيوع القول وانتشاره في الأفاق، والإقبال الشديد عليه؛ لأنه يستميل النفس والمشاعر، والعين بنصاعتها[٦] وجهرها [٧] تدل على رفعة الشاعر

---

[1] ينظر: المقاييس (3/ 193) مادة (ش ع ر)

[2] المفردات (1/ 455) مادة (ش ع ر).

[3] ينظر: المقاييس (3/ 193) مادة (ش ع ر)

[4] المفردات (1/ 455) مادة (ش ع ر).

[5] ينظر: الرعاية صـ 175.

[6] ينظر: العين (1/ 13).

[7] ينظر: الرعاية صـ 162.

وعلو قدره في وسط القوم، كما تدل على فطنة الشاعر وكياسته، والراء بتكرارها[1] تدل على الاسترسال في القول، وهذا يدل على قول الشعر حرفة وصنعة ؛لأن الشاعر يقصده في كل موقف يثير شاعريته، فيتكرر بتكرار المواقف والأحداث، بخلاف من يفطن إلى ما ليس بشعر ولكنه يشبه الشعر ؛ لأنه ليس فيه القصد، وقد فطن الإمام الفيومي إلى هذا المعنى، فقال:" والشعر العربي: هو النظم الموزون، وحدّه ما تركب تركبا متعاضدًا، وكان مقفى موزونا مقصودًا به ذلك، فما خلا من هذه القيود أو من بعضها فلا يسمى شعرًا، ولا يسمى قائله شاعر، ولهذا ما ورد في الكتاب أو السنة موزونًا فليس بشعر لعدم القصد أو التقفية، وكذلك ما يجري على ألسنة بعض الناس من غير قصد؛ لأنه مأخوذ من شَعَرْتَ إذَا فَطِنْتَ وَعَلِمْتَ شعرت "[2]

والشعر صنعة وحرفة، ولكونه مقر الكذب والإغواء، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٤)، ولكونه كلام بشر ويحتاج إلى القصد والتعمد، نفاه الله سبحانه وتعالى عن سيدنا محمد ﷺ فقال:﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ (يس: ٦٩)، وقال تعالى :﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة: ٤١)، وجاء النفي على صيغة اسم المصدر وصيغة اسم الفاعل ولكل له دلالته.

---

[1] السابق صـ 130، 131.

[2] المصباح المنير (11/ 314).

أولاً: الوصف المصدر:

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾(يس: ٦٩).

نفي المولى- سبحانه وتعالى – ونزه رسوله ﷺ من أن يكون شاعرا أو أن يكون القرآن شعرًا، وجاء النفي على صيغة المصدر دلالة على المبالغة في نفي الصفة عنه ﷺ نفيًا قطعيًا، فقد نفى عنه ﷺ جميع صنوف الشعر ألبته قبل النبوة وبعدها، وهذا ما أكدته (أل) التي للاستغراق، فالتعبير بالمصدر يفيد كمال تنزيه النبي ﷺ عن قرض الشعر وتأليفه؛ حيث إنه ليس من طباع ملكته[1] ولذا قال- سبحانه وتعالى- بعد ذلك ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، أي: ما يسهل له قوله، يقول الإمام السمر قندي:" قوله تعالى:" ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ جوابًا لقولهم: إنه شاعر، يعني : أرسلنا إليه القرآن ولم نرسل إليه الشعر ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ لم يكن أهلا لذلك، وما يسهل له، وما يحضره الشعر "[2].

فالمولى –سبحانه وتعالى- قادر أن يعلمه الشعر، ولكنه لم يمكنه من ذلك، كما لم يمكنه من القراءة والكتابة من قبل وجعله أميا؛ دحضا للشبهة، وإكمالا للحجة[3].

فأبعده –سبحانه وتعالى- عن جميع صنوف الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شعراء، وقد أوضح ذلك الإمام الشعراوي، فقال :" أبعده – سبحانه وتعالى – عن الشعر حتى لا يظن القوم

---

[1] بحر العلوم (3/ 130).

[2] ينظر التحرير والتنوير (23/ 26).

[3] ينظر: فتح القدير (4/ 435).

أن ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شاعر، فلم تكن طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر، إنما كان ﷺ ذا إحساس مرهف، ولو قدّر له أن يكون شاعرًا لكان عظيمًا"[1].

ثانيا: الوصف باسم الفاعل:

قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾

فقد نفى –سبحانه وتعالى– أن يكون القرآن شعرًا وأن يكون النبي ﷺ شاعرًا كما زعمت قريش؛ لأنهم يعلمون علمًا لا شبهة فيه أنه ليس كذلك، ولكنهم لما لم يقصدوا الإيمان افتروا عليه ﷺ بافتراءات عديدة منها أنه شاعر وأنه كاهن وأنه ساحر، إلى غير ذلك من الفِرَى، وكل هذه الاضطرابات الفكرية دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ولا يعلمون كنهه[2] وأكد القرآن الكريم بطلان قولهم وتخبطهم على لسانهم حيث حكي القرآن عنهم قوله تعالى :" ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (الصافات : ٣٦)، فقد وصفوا الرسول ﷺ بوصفين لا يخفى تناقضهما على كل ذي عقل سليم، فالشعر يقتضي عقل رصين حكيم، والمجنون لا يتأتى له ذلك، وقد أشار إلى ذلك المعنى الإمام أبو حيان فقال:"وقولهم : ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ تخليط في كلامهم، وارتباك في غيّهم، فإن الشاعر عنده من الفَهْم والحَذَق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى

---

[1] خواطر الإمام (1/ 10394).

[2] فتح القدير (3/ 470).

شيء من ذلك"[1]

وكل هذا يدل على أنهم يعلمون علما يقينيًا أنه من ذلك براء؛ حيث إنه تربى بين ظهرانيهم، ولم يحسن قول الشعر لا في صغر ولا في كبر ولا قبل الرسالة ولا بعدها؛ وأكد ذلك السياق القرآني بالتعبير بصيغة اسم الفاعل مبالغة في قبح افترائهم وسفاهة عقولهم؛ لعلمهم بأنه ليس كما يقولون، ودليل على أن قولهم ناشيء عن صدِّهم عما جاء به؛ لعلمهم أنه الحق، ولذا زيلت الآية بقوله تعالى : ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ دليل على قولهم أنه شاعر بهتان متعمَّد، وأنهم لا يرجى إيمانهم[2]

كما أن الصيغة تدل على كمال تنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر على الدوام قبل الرسالة وبعدها ، ويؤكد ذلك قول السيدة عائشة (رضى الله عنها) حين قيل لها:" أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ فَقَالَتْ: كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنْ شِعْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ: " وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تزود"[٣] .

وجاء النفي على صيغة الجملة الاسمية دلالة على ثبات ودوام هذا النفي، وجاءت الباء في (بقول) لتأكيد هذا النفي وتقويته، وآثر السياق القرآني الضمير(هو) بدلا من الاسم الصريح تنزيهًا للنبي ﷺ مما رموه به، وإظهارًا لشناعة قولهم، وثبات موقفهم تجاه الدعوة المحمدية؛ لأنهم لو قصدوا الإيمان لم يفعلوا ذلك؛ ولذا ختمت الآية بقوله تعالى﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ**

---

[1] البحر المحيط (9/ 99).

[2] ينظر : التحرير والتنوير (29/ 143).

[3] صحيح الأدب المفرد صـ ٣٢٢، فتح الباري (١٠/ ٥٤١).

﴿ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي:" ذكر في نفي الشاعرية ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾؛ لأن هذا القرآن ليس من قول رجل شاعر، حيث إن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها إلا أنكم لا تؤمنون، أي: لا تقصدون الإيمان؛ فلذلك تعرضون عن التدبر، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم: (إنه شاعر) لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر "[1] .

والمقطع الصوتي يعضد الدلالة الإيحائية للصيغة؛ حيث إنه يتكون من المقاطع (ص ح ح/ ص ح / ص ح) في حال الوصل، والمقاطع كلها مفتوحة دلالة على الحرية في القول ، والمقطع المتوسط (ص ح ح) يدل بانفتاحه وامتداده على الشهرة والذيوع وعلو المكانة والمدّ للمبالغة، والمقطعان المتواليان (ص ح/ ص ح) يدل على الفطنة والدقة في العلم، كما يدل بتكرارهما على أنه صنعة، تتكرر وتتجدد بتكرار وتجدد المواقف والانفعالات.

٦، ٧((الضلال والإغواء [2]))

أولا: الضلال :

يدور المعنى المركزي للجذر اللغوي (ض ل ل) حول الغياب والخفاء، فيقال : ضَلَّ الشئ إذا خفي وغاب، وفي ذلك يقول الدكتور جبل :" المعنى المحوري: غياب الشيء في أثناء شيء، حتى لا تميز هذا من ذاك، كالماء

---

[1] ينظر: مفاتيح الغيب (30/ 6340)

[2] تمت معالجة اللفظتين في موضع واحد؛ نظرًا لارتباط المعنى التفسيري لهما، وخشية التكرار إذا تم الفصل .

في اللبن"[1] .

واستعمل الضلال في معنى النِسّيان؛ لما فيه من غِياب الحفظ وضياع الشيء، ومنه قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ (البقرة: ٤٨) ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الشعراء : ٢٠)، ، وقد نص على ذلك الإمام الأزهري فقال:" ضللت الشيء أضِلُّهُ، إذا جعلته في مكان ولم تدر أين هو، وأضْلَلْته، أي: أضَعْتُه "[2].

والضلال ضد الهدى قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾(يونس: ١٠٨، ويقال:"ضلّ الكافر،غاب عن الحُجَّة " [3].

يتضح مما سبق أن الضلال منه ما يكون عن غير قصد كالنسيان، وهو ما نُسِب إلى الأنبياء، ومنه ما يكون عن قصد وعمدًا وهو ما نُسِب إلى الكافرين ،وقد أكد ذلك الإمام الراغب، فقال:" الضلال العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، ويقال لكل عدول عمدا كان أو سهوا يسيرًا كان أو كثيرًا...ولذا نسب إلى الأنبياء وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون شاسع، ألا ترى أنه قال سبحانه وتعالى في النبي محمد ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧) ، أي : غير مهتدٍ لما سيق

---

[1] المعجم الاشتقاقي مادة (ض ل ل).

[2] تهذيب اللغة (319/11) مادة (ض ل ل)..

[3] السابق

إليك من النّبوة، وقال عن موسى (عليه السلام) ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الشعراء: ٢٠)، تنبيهًا أن ذلك كان منه سهوا"[1] .

أما الضلال عن قصد فهو الضلال البعيد وهو ضد الاهتداء، وهو الضلال عن معرفة الله **ووحدانيته، ومعرفة النبوة والعبادات، ،ومنه قوله تعالى:** ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦)، وقال أيضا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾(النساء: ١٦٧).

وبالنظر في أصوات هذه الكلمة (ضلّ) نجد أنها تجسد الدلالة الإيحائية لمعنى الضلال ، فهي تبدأ بصوت الضاد، والضاد من أقوى حروف العربية ، فهي حرف مجهور شديد مطبق مستعل مفخم[2] ، وكلها صفات قوة ، وهذا يدل على مدى شدة الحيره التى تلم بالإنسان في حالة افتقاد طريق الصواب، كما تدل على شدة حرصه وولعه للوصول إلى ضالته، واللام بانحرفها[3] تدل عن العدول عن المنهج المستقيم لا سيما وهي مضعفة، مما يدل على شدة الظلمة التي يعيش فيها المضَل .

كما أن المقطع الصوتي أيضا يجسد هذه الدلالة، فالكلمة تتكون من (ص ح ص / ص ح)، فالمقطع الأول المتوسط المغلق يدل على انحباس الظلام في القلب، مما نتج عنه عمى البصيرة ويجسد ذلك المقطع (ص ح) .

---

[1] ينظر: المفردات مادة (ض ل ل)..

[2] ينظر: الرعاية صـ 184.

[3] ينظر: السابق صـ 132

ثانيًا :((غوي))

يدل الغَيُّ في أصل اللغة على الجهل والفساد ، يقال:" غَوَى غَيًّا، إذا انهمك في الجهل"[١] ، والغَيُّ: الفساد ، يقال: " الغيُّ : الفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)، أي: فسد عليه عيشه، أخذًا من قولهم :غَوِي الفصيل وغَوَى "[٢].

وقد أكد ذلك الإمام ابن فارس، فقال:" غوى : الغين والواو والحرف المعتل بعدها أصلان ، أحدهما: يدل على خلاف الرشد، وإظلام الأمر، والآخر: على فساد في شيء، فمن الأول قوله تعالى:﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (النجم: ٢)، ومن الثاني قولهم: غَوِيَ الْفَصِيلُ،من شرب اللبن ففسد جوفه"[٣] . والغَيُ من الأضداد، يقال:" غَوِيَ الفصيلُ يَغْوَى غَوًى؛ إذا لم يُصيب رِيًّا من اللبن حتى كاد يهلك، ويقال أيضا أيضا : إذا أكثر من اللبن فأتُخِم "[٤].

وبالنظر إلى أصوات هذه الكلمة نجد أنها تبدأ بصوت قوي وهو الغين لما فيه الجهر والاستعلاء [5] مما يدل على استحكام الجهل والفساد وتمكنة في النفس بقوة، ثم تأتي بعد ذلك الواو الصامتة المجهورة [6] لتدل على التمادي في الغي ليس فحسب، بل والإغواء والمبالغة فيه وأكد ذلك المدّ .

---

[1] ينظر: المصباح المنير (2/ 457) مادة (غ و ى).

[2] ينظر: التهذيب (8/ 186) مادة (غ و ى).

[3] ينظر: المقاييس (4/ 399)مادة (غ و ى).

[4]العين مادة (غ و ى).

[5] ينظر: الرعاية صـ 168.

[6] ينظر: السابق صـ 235.

والمقطع الصوتي للكلمة والمكون من (ص ح/ ص ح ح) يؤكد هذا المعنى؛ حيث إنه يتكون من مقطعين مفتوحين، فهما يشبهان عملية الإغواء بانفتاحها تدريجيًا، ؛نتيجة لاتباع الهوى دون محاسبة النفس ومراقبتها، فيؤدي ذلك إلى استحكام الغي والجهل في النفس وتمكنه .

***الفرق بين الغي والضلال:**

* أن كل غيّ ضلال، وليس كل ضلال غَيّ، فالضلال أعمّ، وقد فرق بينهما الإمام الرازي فقال:" الضلال أعمُّ استعمالا في الوضع، تقول ضلّ بعيري ورَحْلي، ولا تقول : غَوَى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السَّالك ألى مَقْصِدِه طريقًا أصلا، والغِوَايَة : أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم يَدُلُّ "[1] ، و"الغيّ ضلالٌ مسبَّب عن هوىً[2] فيكون عن قصد، أما الضلال يكون عن قصد وعن غير قصد؛ لذا نسب إلى الأنبياء ، أما الغَيّ . فحاشا لله . من أن يتصف به نبي لا قبل النبوة ولا بعدها؛ للعصمة الإلهية، والضَّلَالَ فِي مُقَابَلَةِ الْهُدَى، وَالْغَيَّ فِي مُقَابَلَةِ الرُّشْدِ، وهذا يدل على قصد التعمد فيه؛ لذا جُمع بينهما في موضع واحد، يقول الدكتور جبل:" الغيّ فيه معنى الانجذاب إلى ما يترتب عليه فساد، فكأنه فيه درجة من التعمد، وهذا سرّ الجمع بينهما فهو ﷺ ما ضلّ بهوى ولا بغير هوى"[3].

وقد نفى المولى . سبحانه وتعالى . القصد عن أنبيائه في الضلال ونفى مطلق الإغواء عن رسوله ﷺ) فقال تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ وذلك أن قريشًا قالوا لسيدنا محمد ﷺ قد ضللت وتركت دين آبائك وأجدادك

---

[1] مفاتيح الغيب (28/ 234).

[2] المعجم الاشتقاقي (3/ 1548) مادة (غ و ى).

[3] السابق نفسه.

إلى دين جديد، فرد المولى –سبحانه وتعالى– عنه افتراء قومه، فنفى عنه ما قالوه، وقال تعالى:﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ أي : ماحاد عن المنهج المستقيم، ولا ترك دين أبيه إبراهيم، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٧) ، فهو مهتد راشد، وليس ضالا غاوي[١]، يقول الإمام الزمخشري:" قوله تعالى﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ، يعنى : محمد ﷺ، والخطاب لقريش، وهو جواب القسم، والضلال : نقيض الهدى، والغي: نقيض الرشد، أي: هو مهتدٍ راشدٍ، وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال ، وما آتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدره عن هواه ورأيه، وإنما هو وحي من عند الله يوحى إليه"[٢].

وجاء الوصفان المنفيان على صيغة الماضي الدالة على الانقطاع دلالة على نفي هذه الأوصاف عنه ﷺ ألبته قبل النبوة وبعدها، أي ما عهدتم عنه الضلال ولا الإغواء لا في صغره ولا في كبره حتى تصفوه بذلك، وهذا ما أكده السياق القرآني بقوله:﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ دلالة على أنهم يعرفونه ويعهدونه؛ لأن المصاحبة تقتضي الملازمة–وهذا دليل على بشاعة فريتهم وكذبها، مما يؤكد أن قولهم رغوبًا منهم عن الإيمان ومحاولة لإبطال دعوة سيدنا محمد ﷺ، ، وهذا أوكد في إقامة الحجة عليهم، يقول الإمام ابن عاشور:" والمراد بالصاحب هنا: الذي له ملابسات وأحوال مع المضاف

---

[1] ينظر: جامع البيان (22/ 495).

[2] الكشاف (4/ 418).

إليه، وهو سيدنا محمد ﷺ، وإيثار التعبير عنه ﷺ بوصف ((صاحبكم)) تعريض بأنهم أهل بهتان، إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة إطلاعهم على أحواله وشؤونه"[1].

كما جاء السياق القرآني بصيغة المضارع في قوله تعالى﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ (النجم: ٣) دلالة على أنه ﷺ هاديًا لهم الآن وفيما يستقبل من الزمان ، مما يستوجب منهم اتباعه والإيمان به وبما أنزل عليه،وفيه دليل على فتح باب التوبة لهم، ودعوتهم إلى التدبر والتفكر فيما جاءهم به حتى ينجوا من عقاب الله تعالى، وقد أكد الإمام الرازي هذا المعنى، فقال:" فإن قيل: ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضي في قوله:(ما ضلّ) وصيغة المستقبل في قوله: (وما ينطق) في غاية الحسن، أي: ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره، وما غوى حين اختلى بنفسه، ورأى في منامه ما رأى ، ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ الآن، حيث أرسل إليكم وجعل رسولا شاهدًا عليكم، فلم يكن أولا ضالًا ولا غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضلال ومرشدًا وهاديًا... وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد إرساله في صغره عن الكفر والمعايب القبيحة"[2]. وجاء النفي هنا على صيغة الجملة الاسمية دلالة على ثبوته ودوامه.

** **وربما يسأل سائلا**، ويقول: نفى الله –سبحانه وتعالى–الضلال في هذه الآية عن نبينا محمد ﷺ، وأثبته له في آيه آخرى ، قال تعالى ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ** ﴾ (الضحى: ٧)، فيظن أن هناك تعرضًا؟

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير (27/ 92).

[2] مفاتيح الغيب (28/ 234).

فيجاب عن ذلك: بأنه لا تعارض بين الآتين، وذلك لعموم معنى الضلال، حيث إنه يكون عن قصد وعن غير قصد- كما سبق-، وأوضح ذلك الإمام الشعراوي، فقال :" قد يفهم بعض الناس كلمة «ضلال» هنا بالمعنى الواسع لها، نقول: لا؛ لأن هناك ضلالًا مقصودًا، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل، وهذا ضلال مذموم، وهناك ضلال غير مقصود، مثل: ضلال رجل يمشي فيسلك طرقًا لا يعرفها فيضل عن مقصده"[١] .

فالذي نفاه الله عن رسوله ﷺ هو الضلال عن قصد، ، حيث إن المعنى في الآية الثانية: الجهل بالنبوة والرسالة لا الضلال الذي ضدّ الرشاد، فالمولى . سبحانه وتعالى . يعصم أنبيائه عن الصغائر والكبائر، يقول الإمام السمرقندي:" قوله تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ يعني: وجدك جاهلاً بالنبوة، وبالحكمة وبالكتاب وقراءته، والدعوة إلى الإيمان، فهداك إلى هذه الأشياء، وكقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾(الشورى: ٥٢)، ويقال: وَوَجَدَكَ ضَالًّا يعني: من بين قوم ضلال فَهَدى يعني:حفظك من أمرهم، وعن أخلاقهم. ويقال: ووجدك بين قوم ضلال، فهداهم بك"[٢]

٨-((ضنين))

الضّن في اللغة : الحبس والبخل المطلق، يقال:" ضَنِنْتُ بالشيء: بَخِلتُ به، حبسته في حوزتي"[٣]، وذلك المعنى هو الأصل الدلالي للتركيب كما

---

[1] خواطر الإمام (6869/11).

[2] بحر العلوم (3/ 592).

[3] المعجم الاشتقاقي (3/ 1300) مادة (ض ن ن).

نصّ عليه الإمام ابن فارس فقال:" الضاد والنون أصل صحيح يدل على بخل بالشيء، يقال: ضَنِنْتُ بالشيء أضنُّ به ضَننًا وضَنانة " [1].

وقد خصّه بعض اللغويين بالبخل بالشيء النفيس،يقول الإمام الراغب:" الضَّنَّة هو البخل بالشيء النَّفيس، ولهذا قيل: عِلْقٌ مَضَنَّةٍ ومَضِنَّةٍ، وفلان ضِنِّي بين أصحابي ، أي: هو النفيس الذي أَضنُّ به"[2].

والمادة صوتيًا تتكون من حرفين من أقوى حروف العربية (الضاد والنون) مما يدل على قوة معناها، حيث إن في البخل حبسُ وإمساك بقوة للشيء المحبوس، وهذا ما عبر عنه اللدكتور جبل بقوله:"لزوم الشيء حيزه، أي: بقاؤه داخله لا يبرحه "[3]؛ لذا جاءت الضاد بجهرها وغلظها وفخامتها لتوضح قوة الحبس وعظمته، وتأتي النون المغنّة لا سيما وهي مضاعفة؛ لتعبر عن طول المكث ولزوم الشيء حيزه لا يبرحه ولا ينفك عنه.

وقد نفى المولى . سبحانه وتعالى . عن رسوله ﷺ هذا الصفة دفعًا عنه وغَيْرة عليه، عندما اتهمه المشركون به، فذبّ الله عنه هذا الوصف الذميم تنزيهًا وتكريمًا وتوقيرًا، وجاء النفي في القرآن على صيغة واحدة وهي :

((فعيل: ضنين)

فقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]

وقد اختلف القراء في قراءته، فقرأه الإمام ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالضاد[4] .

---

[1] مقاييس اللغة (3/ 357) مادة (ض ن ن).

[2] المفردات صـ 512 مادة (ض ن ن).

[3] المعجم الاشتقاقي (3/ 1300) مادة (ض ن ن).

[4] ينظر: السبعة في القراءات صـ 674، المبسوط في القراءات العشر صـ 464.

فمن قرأها بالضاد كان المعنى: وما هو على الغيب ببخيل ، اسم فاعل من ضنّ بمعنى بخِل[١]، أي: يكتمه ولا يبينه حتى يأخذ عليه حُلوانًا كالكاهن، بل يؤديه بكل أمانة كما أُمر، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" وما صاحبكم ببخيل فيما يوحى إليه وما يخبر به عن الأمور الغيبية؛ طلبًا للانتفاع مما يُخبر به بحيث لا ينبئكم عنه الإ بعوض تُعُطونه، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهنًا أو عرافًا يتلقى الأخبار عن الجن"[٢] .

والقراءة الثانية " بظنين " بالظاء المعجمة " فعيل " بمعنى " مفعول " من ظننت زيدًا بمعنى اتهمته[٣] وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك الذي يتعدى إلى مفعولين؛ لأنه في سياق الآية لم يتعد إلا إلى مفعول واحد قام مقام الفاعل وهو مضمر فيه[٤] ، يقول الإمام الرازي:" والمعنى : وما محمد على القرآن بمتهم ، أي: هو ثقة فيما يؤدي عن الله "[٥] .

وتواتر القراءتين دليل على إرادة المعنيين، فكلاهما مقصود في الآية الكريمة، فَأَثْبَت للنبي ﷺ الأمانة، ونفت عنه الكذب والخيانة؛ فأخبر الله . تعالى عنه بهما في القراءتين؛ حيث إن مقصود الرسالة لا يتم إلا بهما، فنزه

---

[1] ينظر: الهادي شرح طيبة النشر (3/ 337).

[2] التحرير والتنوير (30/ 162).

[3] ينظر: الهادي شرح طيبة النشر (3/ 337)، والمواهب اللدنية (2/ 566).

[4] ينظر: الكشف صـ 364

[5] مفاتيح الغيب (31/ 70)، وينظر: معاني القرآن للزجاج (5/ 293)، بحر العلوم (3/ 552).

المولى سبحانه وتعالى رسوله عن ذلك غَيْرَةً ودفاعًا، والله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

والصيغة الصرفية في القراءتين تقتضي المبالغة في نفي الصفتين عنهﷺ لكمال أمانته وشدة حرصه في تبليغ ما أمره ربه . عز وجل . وتؤكد ذلك الباء المزيدة في الصفة المنفية، وهذا أبلغ في الردّ عليهم ودحضًا لافترائهم بالحجة ويؤكد ذلك قوله تعالى: (صاحبكم) وهذا ألزم في الحجة عليهم وردًا لكيدهم، ودليل على أنهم يعلمون علمًا يقينيًا أنه براء من قولهم، وأنهم لا يتهمونه ولا يكذبونه، بل يكذبون ما جاء به صدًا للناس عنه، وفيه من التهديد والوعيد لهم إن لم ينتهوا عن قولهم.

وقد أكد المقطع الصوتي للصيغة هذا المعنى، ويتكون من (ص ح/ ص ح ح ص) فوجود المقطع شديد الانغلاق يدل على المبالغة في معنى الصيغة.

—

٩- الغُلُول

أصل الغَلَلَ: تَدَرُّع الشيء وتوسّطه، ومنه الغَلَلَ للماء الجاري بين الشجر؛ لتخلله إياه وإحاطته جذوعه[2] لتسلله بين جذوعه في خُفية، يقول الإمام ابن فارس:" الغلل: الماء الجاري بين الشجر، ومنه الغلول في الغنم، وهو أن يُخفي الشيء فلا يُردُّ إلى القَسْم، كأنَّ صاحبه قد غلّه بين بين ثيابه"

---

[1] ينظر: جامع البيان (1/ 122)، المواهب اللدنية (2/ 566)، التحرير والتنوير (30/ 162).

[2] ينظر:المفردات صـ 610، المقاييس (4/ 375)، المعجم الاشتقاقي (3/ 1597) مادة (غ ل ل).

[١] ،وهو الخيانة، يقال:" غَلّ يَغُلُّ غُلُولاً وأغل: خان"[٢]، ويقال:" أَغَلّ الجازر في الإهاب،إذا سلخه وترك في الجلد شيئا من اللحم على سبيل الخيانة في السلخ"[٣] ، وأغل الرجل ببصره، إذا استرق النظر وحاد عن الصواب [٤]، وغُلّ الرجل يَغِل: إذا خان؛ لأنه أخذ شيئًا في خفاء[٥] ، وكل من خان في شيء في خُفية فقد غَلّ[٦]، وخصَّ البعض الغُلُولُ بالخيانة في الفيء خاصة، وهو أن يخفي الشيء فلا يُردُّ إلى القَسْمِ، كأن صاحبه قد غَلَّه بين ثيابه[٧]. وعليه فالغلل: أخذ الشيء في خُفية، أو الخيانة في خفاء، يقول الإمام الأزهري:" الإغلال الخيانه في المغانم وغيرها، يقال: غَل الرجل يَغِلّ، إذا خان؛ لأنه أخذ شيئا في خفاء، ويقال: غلّ بصر فلان إذا حاد عن الصواب، وأغل الجار والسالخ، إذا أبقى في الجلد شيا من اللحم"[٨].

والغِل: الحِقد والغِش والعداوة؛ لتغلل هذه الصفات في النفس الإنسانية، يقول الإمام ابن سيده:" الغل: الغِش والعَداوة والحقد والحَسد، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ (الأعراف: ٤٣)، ويقال:غَلّ صدرُه

---

(1) المقاييس (4/ 376) مادة (غ ل ل).

(2) المحكم (5/ 367) مادة (غ ل ل).

(3) ينظر: الجمهرة (1/ 159)، والمفردات صـ 610 مادة (غ ل ل).

(4) ينظر: المحكم (5/ 367) والصحاح (5/ 1783) مادة (غ ل ل).

(5) ينظر: التهذيب (8/ 20) مادة (غ ل ل).

(6) ينظر:السابف نفسه.

(7) ينظر: العين (4/ 347)، المقاييس (4/ 375)، التهذيب (8/ 20) مادة (غ ل ل).

(8) ينظر: التهذيب (8/ 22) مادة (غ ل ل).

يَغلّ غلاًّ. وَرجل مُغِلٌّ: مُضِبٌّ على حقد، وغَلّ يَغُلُّ غُلولا، وأغلَّ خَان وفي التنزيل :﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ (آل عمران: ١٦١).

وقد نفى المولى _ سبحانه وتعالى_ صفة الغُلُول عن أنبيائه جميعًا؛ تنزيها لأنبيائه وأصفيائه عن ذلك، لقُبح هذا الوصف وشناعته ، وخصّ السياق القرآني النفي في ذكر حضرت المصطفى ﷺ تشريفًا وتكريمًا وإجلالا، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] ولم يأت النفي في هذه الصفة إلا على صيغة واحدة وهي صيغة المضارع، وسنوضح بمشيئة الله السِّرُ في ذلك من خلال عرض أقول المفسرين.

الوصف على صيغة المضارع

فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦١)، أي: ما كان لنبي من الأنبياء أن يخون، أو يُنسب له الخيانة؛ لأنها تنافي النبوة، وذلك أنه لما كان يوم أحد أخذ المسلمون في النهب والغارة وتركوا القتال، وخافوا أن تفوتهم الغنيمة، وظنوا أن من أخذ شيئًا يكون له، وأن النبي ﷺ لا يقسم لهم، فنزلت الآية تنزيها لرسوله من هذا الريب [١] حيث إن الغلول معصية والنبوة عصمة للأنبياء من المعاصي؛ لذا جاءت **القراءة الأولى** بالبناء للفاعل . وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، ويعقوب برواية روح وزيد[٢] .لتوضح هذا المعنى، فالوصف ثابت له ومعهود

(1)ينظر: بحر العلوم (1/ 261).

(2) المبسوط في القراءات العشر صـ 170، وينظر: السبعة في القراءات صـ 218، حجة القراءات صـ 179، التيسير في القراءات السبع صـ 91.

عنه ومعلوم للجميع قبل النبوة أصلا ، ودليل ذلك أنه لُقِّب بالصادق الأمين قبل الرسالة، فلا ينبغي لهم أن يصفوه بذلك بعد النبوة، فالقراءة تنزيهًا للنبي ودفاعًا عنه على أبلغ وجه [١] وتقبيحًا وتغليظًا لصورة الأمر، يقول الإمام الزمخشري:" قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أراد سبحانه وتعالى أن يبرأ رسوله ﷺوينزهه، وينبه على عصمته بأن النبوة والغلول متنافيان؛ لئلا يظن به ظان شيئا منه، وألا يتريب به أحد"[٢]، وهذا المعنى على قراءة البناء للفاعل .

القراءة الثانية : على البناء للمفعول بضم الياء وفتح الغين، وهي قراءة أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف، ويعقوب برواية رويس[٣]، والمعنى: ليس لأحد من أصحابه أن يغله في الغنيمة. فالقراءة نهي للناس عن الغلول في المغانم، وخص النهي في حضرت النبي ﷺ مع أنه مع غيره حرامًا؛ لأن المعصية تعظم في حضرته ﷺ ، لما يجب توقيره وتعظيمه فأشبهت المعصية في المكان الشريف واليوم المعظم[٤] ، وجاءت لام الجحود لتؤكد هذا المعنى وتقويه[٥]؛ لذا جاءت القراءة لتؤكد قبح هذه الصفة والتنفير منها، وإظهار شناعتها خاصة في حضرتهﷺ، فجاءت القراءة

---

(1)ينظر:البحر المحيط (3/ 412).

(2) ينظر: الكشاف (1/ 433).

(3) المبسوط في القراءات العشر صـ 170، وينظر: السبعة في القراءات صـ 218، حجة القراءات صـ 179، التيسير في القراءات السبع صـ 91.

(4) ينظر: البحر المحيط (3/ 412)، الدر المصون (3/ 46)، روح المعاني (2/ 33).

(5) ينظر: الكافية في علم النحو صـ 45، أمالي ابن الحاجب (2/ 542)، شرح التسهيل (4/ 23).

رادعة ومحذرة من الاتصاف بها؛ لأنه لا ينبغي أن يتصف بها أحدًا ، وهذا كله يُلمح من معنى البناء للمجهول.

ومجيء الغلول على صيغة الفعل المضارع، دلالة على استمرارية النفي عن خُلُقه الشريف لاستمرارية عصمته ﷺ بالنبوبة،كما تؤميء باستحضار هذا المعنى في كل وقت؛ ترهيبًا وترغيبا.

والمقطع الصوتي لهذه الصيغة يدل على ذلك المعنى في تتكون من (ص ح/ ص ح ص ص ح) فالصغير المفتوح يدل على استمرارية نفيه عنه (صلى الله علي وسلم)، ويشير المقطع (ص ح ص ص) شديد الانغلاق يدل على تمكن الوصف فهو سجية وطبع في صاحبه، ونفيه يدل على انتفاء ذلك مع المبالغة؛ لذا عُدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدَّال على الجنس[1] كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ﴾ [آل عمران: ٧٩] ،كما جاء النفي على صيغة الجحود مبالغة، يقول الإمام ابن عاشور:" وصيغة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ صيغة جحود تفيد مبالغة النفي"[2]

(1) التحرير والتنوير (3/ 293)

(2) السابق (4/ 155).

١٠، ١١(الفظاظة والغلظ[١])

(أولا: الغلظ)

الغلظ ضد الرقة وهو أصل في المحسوسات ثم توسع فيه فاستعمل في المعنويات مجازًا ، وقد نص على ذلك الإمام الراغب، فقال:" الغِلْظَةُ ضدّ الرِّقة، ويقال: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير. قال تعالى: ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾(التوبة: ١٢٣) أي: خشونة"[٢]. فمِنْ استخدامه في الأجسام قول الإمام الخليل:" غَلُظَ الشيء غِلَظاً فهو غَليظٌ. واستَغْلَظَ النَّباتُ والشَّجَرُ. وأغْلَظْتُ الثوبَ: وجَدْتُه غَليظاً، واستَغْلَظْتُه: تركت شراءه لغِلَظِه"[٣]، ومن استعماله في المعاني قول الإمام الجوهري:" رجلٌ فيه غلَظة (مثلة الغين) وغِلاظَة بالكسر، أي:فيه فظاظةٌ، وأَغْلَظَ له في القول، وغَلّظ عليه الشئ تغلِّيظا. "[٤]. فالغِلَظُ: القسوة والشدة، يقال :" رجلٌ غليظٌ: ذو غلظة وقساوة وشدَّة "[٥]

ويؤكد النسيج الصوتي للكلمة هذا المعنى، فالكلمة تتكون من حرف الغين الذي يدل بجهره وتفخيمه على الشدة والقسوة ، واللام بانحرافها تدل على الانحراف عن الضوابط . فالغلظ خلق ينافي الطبيعة البشرية؛ لأنها

---

[1] تمت معالجة اللفظتين في موضع واحد؛ نظرًا لارتباط المعنى التفسيري لهما، وخشية التكرار إذا تم الفصل .

[2] المفردات (1/ 612) مادة (غ ل ظ).

[3] العين (4/ 398) مادة (غ ل ظ).

[4] الصحاح (3/ 1175) مادة (غ ل ظ).

[5] المحكم (5/ 477) مادة (غ ل ظ)

فطرت على الخير. ، كما تدل الظاء بقوتها على تكرار ومضاعفة الشدة مبالغة، فهي قسوة على قسوة، وشدة على شدة.

والمقطع الصوتي لكلمة (غلظة) يتكون من (ص ح ص / ص ح ص) المتوسط المغلق مما يدل على أن الغِلظة خُلُق وسيجة وطبعٌ مستكن في النفس، وتكراره يدل على المبالغة .

ثانيًا : الفظاظة :

تدل مادة (ف ظ ظ) في أصل الاستعمال على ماء الكَرِش يعتصر فيشرب في الفلوات عند الحاجة إليه ثم استعير بعد ذلك لذميم الخُلُق، غليظ المنطق، شبه به لمرارت قوله وكراهته، يقول الإمام الراغب:" الفَظُّ: الكَرِيه الخُلُق، مستعار من الفَظِّ، أي: ماء الكَرِش، وذلك مكروه شُربه لا يتناول إلّا في أشدّ ضرورة"[١]، فالفظاظة وصف للقول بالغلظ والتجهم والشدة لا في الفعل، يقول الإمام الزبيدي:" الفظّ من الرجال: الغليظ الجانب السيِّئ الخُلُق القاسي، وقيل: الخَشِن الكلام، أي:في منطِقِه جفاء وغِلَظ وخُشُونة وتَجَهُّم"[٢]

وأصوات الكلمة تحوي بدلالتها، حيث شكلت الظاء المجهورة المطبقة المفخمة المستعلية معنى الغلظ، والتجهم في المنطق لا سيما وهي مضاعفة، فيتضاعف معها ما توحي به، وتدل الفاء بتفشيها[٣] في سياق الكلمة على البعد والنفور من صاحب هذا الخلق واجتنابه؛ لأن من يصاحب المتصف بهذ الوصف يكون كمن يتجرع جرعة دواء كالحنظل، فالفظاظة حنظل في ميدان جميل الأخلاق.

---

[1] المفردات (1/ 640) مادة (ف ظ ظ).

[2] ينظر: تاج العروس (20/ 250) مادة (ف ظ ظ).

[3] التفشي: هو الريح التي تخرج بشدة عند النطق بالشين والفاء . الرعاية صـ 227.

ويساهم المقطع الصوتي . أيضا . في جزء من هذه الدلالة حيث تتكون الكلمة (فَظّ) من (ص ح ص) المتوسط المغلق الذي يدل على أن هذه الخصلة سجية وطبيعة، وذلك لا نغلاق الصدر عليها، وهي صفة قبيحة تدعو إلى النفور من صاحبها حتى ولو كان ذا فضل وعلم؛ لأنها تدل على قسوة القلب وفحش المنطق؛ لذا نفاها سبحانه وتعالى عن نبينا محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] يدعو إلى الله بالحسنى ، قال تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل: ١٢٥(.

وقد نفى المولى سبحانه وتعالى عن سوله ﷺ هذين الوصفين ، وأثبت له ضدهما، فقال :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾(آل عمران: ١٥٩)، فنُعت الرسول ﷺ بخلق الرحمة واللين ، ونفي عنه أضداهما من الفظاظة وغلظ القلب.

والآية الكريمة امتنان على المسلمين؛ حيث إن الرسول ﷺ لم يعاملهم بالفظاظة ولا بالقول الجافي يوم أحد حين تركوا مراكزهم وخالفوا قول الرسول ﷺ) مما تسبب في الهزيمة، لكن عاملهم بالحسنى والرحمة واللين[1]؛ وذلك لضعفهم وقلة تحملهم لذلك، يقول الإمام الطبري:" ذكر لينه لهم وصبره عليهم؛ لضعفهم وقلة صبرهم على الغلظة لو كانت منه في كل ما خالفوا فيه، ما افترض عليهم من طاعة نبيهم"[2]؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد

---

[1] ينظر : مفاتيح الغيب (9/ 405).

[2] جامع البيان (7/ 342).

ذلك ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أي: "لتفرقوا من عندك، ولكن الله جعلك سهلا سمحا طلقًا لينا لطيفا بارا رحيما"[1]، وهذا يدل على أن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظة عليهم، لكن رحمة من الله لنت لهم رحمة بهم، وهذا ما أقره القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨(، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣) .

والآية –أيضا –امتنان على الرسول ﷺ بإثبات لين الجانب ، ونفي الفظاظة والغلظ عنه؛ وذلك لأن لينه لهم لم يكن إلا برحمة من الله، أي : مع رحمة الله، يقول الإمام ابن عاشور:" الباء للمصاحبة، أي : لنت مع رحمة الله؛ إذ كان لينه في ذلك كله لين لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجارة لهم في التساهل في أمر الدين؛ ولذلك كان حقيقا باسم الرحمة"[2] وجاءت (ما) الزائدة لتؤكد هذا المعنى وتقويه، يقول الإمام النسفي:" و(ما) مزيدة للتوكيد والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله"[3].

وعبر السياق القرآني عن وصفه ﷺ بـ (الين) بصيغة الماضي الدلالة على الانقطاع دلالة على أن هذا الخلق الكريم فُطر عليه منذ نشأته، وسبق ذلك في علمه –سبحانه– ونصت عليه الكتب السماوية من قبل مبشرة ببعثته ورسالته، يقول الإمام الرازي:" دلّ فعل المضي في قوله (لنت لهم)

---

[1] بحر العلوم (1/ 260).

[2] التحرير والتنوير (4/ 144)

[3] مدارك التنزيل (4/ 163).

على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خُلُقه، وأن فطرته على ذلك، برحمة من الله إذ خلقه كذلك ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)"[١].

ونفي المولى –سبحانه وتعالى–عن رسوله ﷺ خُلُق الفظاظة والغلظ ، وجاء النفي بأسلوب الماضي((ولو كنت)) دلالة على أنه ﷺ لم يتصف بهذا الخلق لا قبل الرسالة ولا بعدها، كم أن الكتب السماوية نفت ذلك عنه من قبل أيضا، يقول الإمام الطبري:" روى عن قتادة أن نعت محمد ﷺ في التوراة ((ليس بفظ ولا غليظ ولا صخوب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح)"[٢].

وجاء الوصف (فظًا) على صيغة المصدر دلالة على المبالغة في نفي الحدث عنه (صلى الله علية وسلم) نفيًا تامًا مع ثبوته ودوامه، أي: هذا الوصف لا يتطرق إلى نفسه الشريفة ولو بجزء يسير حتى مع مخالفيه، كما قال تعالى﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾(النحل: ١٢٥) ، وقال تعالى﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤)،كما نفي عنه الغلظ وجاء الوصف على وزن (فعيل) الدلالة على المبالغة في النفي.

ولسائل أن يسأل، لما لم يأت الوصف المنفي على صيغة واحدة وهي المصدر . مثلا . حيث إنها الأبلغ؟

---

[1] مفاتيح الغيب (4/ 145).

[2] جامع البيان (7/ 341).

ويجاب على هذا التساؤل:بأن السبب في ذلك يرجع إلى المعنى الدقيق لكل من الفظاظة والغلظ، وأوضح ذلك الإمام الرازي، فقال:" فإن قيل: ما الفرق بين الفظّ وغليظ القلب؟

قلنا : الفَظّ الذي يكون سيّء الخُلُق، وغليظ القلب الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيّء الخلق ولا يؤذي أحدًا لكنه لا يرقُّ لهم ولا يرحمهم"[1].

وهذا يدل على أن الغِلظة في بعض الأحوال مطلوبة، وذلك إذا كانت في حدٍّ من حدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي فقال:" اللّين والرّفق، إنما يجوز إذا لم يفض ذلك إلى حقٍّ من حقوق الله، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ ﴾ (التحريم: ٩) "[2] ، وقد علل لهذا فقال :" وتحقيق القول فيه: أن طرفي الإفراط والتَّفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فوُرُود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتّفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم"[3]، فالنفي محمول على طبعهﷺ والأمر محمول على المعالجة[4].

---

[1] مفاتيح الغيب (9/ 407).

[2] السابق (9/ 408).

[3] السابق نفسه.

[4] ينظر: جمع الوسائل في شرح الشفا (2/ 621).

١٢-((الكذب))

عرّفه بعض العلماء بالنقيض وأصّلوا له به، يقول الإمام ابن فارس:" الكاف والذَّال أصل يدل على خلاف الصِّدق"(١) مما يدل على أن الكذب خَرقٌ لواقع الخبر أو الإخبار على خلاف حقيقته وواقعه، ولم يشترط فبه صاحب المصباح المنير القصْدِيه، بل جعله سواء في العمد والخطأ، فقال:" الكَذِبُ : هوالإخبار عن الشيء بخلاف ما هو ، سواءٌ فيه العمد والخطأ"(٢) ، واشترط فيه الإمام الكفوي القصدية، فقال:" الكذب: الإخبار عن الشّيء بخلاف ما هو ، مع العلم به وقصد الحقيقة، فخرج بالأول الجهل وبالثاني المجاز"(٣)، فيقال : كَذَبَ كِذْبًا وكَذِبًا فهو كاذب وكذّاب وكذّوب"(٤)، ويقال : أَكْذَبْت الرجل: وجدته كاذبًا، وكَذّبتُه: نسبته إلى الكذب صادقا كان أو كاذبًا، أو قلت له: كذَبْت(٥).

ومن المجاز :كذّب نفسه وكذّبته نفسه،إذا حدثته بالأماني بعيدة المنال، وكذب لبن الناقة ، إذا ذهب(٦)، ويستعمل أيضا بمعنى وَجَبَ، ومنه " كَذَب عليكم الحجُّ، كَذَب عليكم العمرةُ، كَذَب عليكم الجهادُ، ثلاثةُ أسفارٍ كَذَبنَ عليكم" (٧).

---

(1) المقاييس (5/ 167) مادة (ك ذ ب).

(2) المصباح المنير (2/ 528) مادة (ك ذ ب).

(3) الكليات صـ 768 .

(4) الصحاح (1/ 210) مادة (ك ذ ب).

(5) ينظر: المفردات صـ 704، المصباح المنير (2/ 528) مادة (ك ذ ب).

(6) ينظر: أساس البلاغة (2/ 127) مادة (ك ذ ب).

(7) ينظر: مسند الفاروق (١/ ٤٥٦)، الجامع الكبير (١٥/ ٧٢).

والكذب من الصفات القبيحة بالقبح الشرعي ونهى عنه الإسلام؛ لأنه ينافي الإيمان، وقد اتهم المشركون المصطفى ﷺوافتروا عليه افتراءات كثيرة ومن جملة هذه الافتراءات أنه كذّاب، ولكن المولى . سبحانه وتعالى . تولى أمرالدفاع عن رسولهﷺ دفاعًا وغَيْرة عليه وتسلية لقلبه الشريف، وتنزيهًا ومدحًا وتشريفًا؛ لأن هذا الخُلق الذميم ينافي الإيمان فضلا عن أن يكون من اتُهم به رسولًا نبيًا، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وجاء النفي على صيغ منها:

أولا : صيغة المضارع:

قال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

نزلت الآية الكريمة تسلية وتعزية وإزالة للحزن عن قلب رسوله ﷺ بسب افتراءات المشركين عليه، ومن بين هذه الافتراءات قولهم: إنه كذّاب، فنفى سبحانه وتعالى عنه هذا الوصف الذميم دفاعًا وغَيْرة وتحنانًا وتسلية وتطمنينًا لقلبه الشريف[1]، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ ، وفيها قراءتان :

الأولى: بالتخفيف في (يُكَذِّبُونَكَ)وهي قراءة نافع والكسائي، **والثانية:** بالتشديد، وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم وابن عامر[2] .

(1) ينظر: لطائف الإشارات (1/ 468)، تفسير السمعاني (2/ 99).

(2) ينظر :الحجة للقراء السبع (3/ 302)، المبسوط في القراءات السبع صـ 193، جامع البيان (3/ 1037).

ومعلوم أن التضعيف في الفعل أقوى من التخفيف، حيث إنه يقتضي المبالغة في الحدث وتكراره بخلاف التخفيف، وعليه كان الإمام الكسائي يحتج لقراءته، وقد نَقل لنا هذا الخبر الإمام الرازي فقال:" كان الكسائي يقرأ بالتخفيف، ويحتج بأن العرب تقول : كَذَّبْت الرجل، إذا نسبته إلى الكذب وإلى صنعه الأباطيل، وأكذْبته ، إذا أخبرت أن الذي يحدث به كَذب، إن لم يكن ذلك بافتعاله وصنعه"(١).

ونلمح من ذلك أن الإمام الكسائي أشارإلى قوة اللفظ وأثره في قوة المعنى، فجعل التضعيف وصفًا لجميع أقول الرجل وأحاديثه التي يرويها حتى صار به علمًا لكثرة تكراره فأصبح الوصف سيجية فيه وخُلُقًا، أما التخفيف فوصف لبعض أحاديثه وأخباره، وعلى قراءة التشديد يكون المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم بل يجحدون بنبوتك بألسنتهم وظاهر كلامهم عنادًا وحسدًا، وخوفًا على زوال الشرف من أيديهم (٢)، وقد أوضح ذلك الإمام مكي ، فقال:" فإنهم لا يكذبونك جهلا منهم بصدقك، بل أنت فيما يسرون صادق، ولكنهم حسدوك حسدوك فكذبوك، وأنك صادق"(٣) .

وعلى قراءة التخفيف يكون المعنى أنه جاء بالكذب ورواه ، فالوصف للقول لا للقائل ، يقول الإمام الطبري:" التخفيف بمعنى :إنهم لا يكذبونك فيما آتيتهم به من وحي ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا، بل يعلمون صحته ولكنهم يجحدون حقيقته قولا فلا يؤمنون به"(٤).

---

(1) مفاتيح الغيب (12/ 518).

(2) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (2006/3)، مفاتيح الغيب (12/ 519).

(3)الهداية غلى بلوغ النهاية (3/ 2006).

(4) جامع البيان (11/ 330).

فنفى سبحانه وتعالى هذا التكذيب عن رسوله ﷺ ونسبه إلى آياته تسلية وتطمنيًا لصدره الشريف، أي: إنهم لم يكذبوك إلا بعد أن جئتهم بالآيات والبراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله . تعالى . ووجوب الإيمان به،وقد نقل هذا المعنى الإمام الزمخشري فقال:" والمعنى : أن تكذيبك أمر راجع غلى الله؛ لأنك رسوله المصدق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة، وإنما يكذبون الله بجحود آياته"(١)

وصيغة فَعّل تجسد الحزن البالغ الذي ألم بقلب المصطفى ﷺ جراء تكذيبهم له، كما تُنذر بالوعيد الشديد والعقاب الأليم المستحق لهؤلاء المعاندين بسبب جرمهم وافترائهم؛ لجلال قدر النبي ورفعة مكانته عند ربه، وقد أشار الإمام الألوسي إلى دلالة الصيغة على المبالغة، فقال:" ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا بطريقة التسلي بما يفيده من بلوغه ﷺ في جلالة القدر ورفعة الشأن غاية ليس وراءها غاية، ...وفيه استعظام لجنايتهم مبني عن عظيم عقوبتهم"(٢)،كما أن مجيئها على صيغة المضارع يدل على الاستمرار التجددي للحدث واستحضاره.

ثم عزّاه ربه ليصبر على أذاهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٣٤] وهذا طريق آخر من طرق التسلية للرسول الكريم ﷺ وإزالة الحزن عن قلبه الشريف بيَّن فيه سبحانه وتعالى أن سائر الأمم كذبوا رسلهم، وصبروا على

(1) الكشاف (2/ 17).

(2) روح المعاني (4/ 128).

تكذيبهم وإيذائهم حتى جاءهم نصرنا ، وأنت يا محمد أولى بذلك فأنت بعثت رحمة للعالمين فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل[١].

وزكى – سبحانه وتعالى– فؤاد النبي ردًا على تكذيب المشركين له فيما بلغهم من رؤية النبي ﷺ الملك جبريل (عليه السلام) [٢] فقال سبحانه : ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ، والمعنى :" ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بصره من صورة جبريل (عليه السلام)، بل رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أن ما رآه حق"[٣] وجاءت التزكية والدفاع عن الفؤاد؛ لأنه أشرف الجوارح في الجسد، فهو محل الاعتقاد والتصديق.

وزكى سبحانه وتعالى بصر النبي فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم : ١٧)، أي أنه ﷺ رأى جبريل رؤية لا مبالغة فيها ،وأثبته اثباتًا مستقيمًا من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوز الحد،وفي هذا نفي لوجود الريب عنه[٤] ووصف لأدب النبي ﷺ في ذلك المقام حيث لم يملْ بصره ولم يمُدّه إلى غير ما رأى[٥] فصلاة وسلامًا على من بعثه ربه رحمة للعالمين.

---

(1) مفاتيح الغيب (12/ 520)،المحرر الوجيز (2/ 287).

(2) التحرير والتنور (27/ 98).

(3) ينظر: الكشاف (4/ 416).

(4) ينظر: الكشاف (4/ 421)،المحرر الوجيز (5/ 200)، التحرير والتنوير (27/ 101).

(5) ينظر تفسير البغوي (3/ 307)، فتح القدير (5/ 129).

١٣-((الكاهن))

الكَاهِن: هو الذي يقضي بالغيب بضرب من الظنَّ، ومن العلماء من جعل الغيب خاصة بالأخبار الماضية، ومنهم من جعله في الأخبار المستقبلة، يقول الراغب:" الكاهن: هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الغيب"[١]،ويقول ابن الأثير:"الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار"[٢].

والحقيقة أن علم الكهانة يصدق على كل غيب سواء كان ماضيًا أو حاضرًا؛ لأن الغيب ما غاب عن الإنسان سواء كان أو سيكون أوهو كائن؛ وهذا مادل عليه تركيب (كهن) فهو يدل على إظهار لطيف مستكن في النفس، يقول الدكتور جبل:" المعنى المحوري: إبراز لطيفٍ مُستكنٍّ في الباطن أو الغيب: كالكلام الليِّن اللطيف الذي يقال في المحاباة – والإخبار بالمغيَّبات تكلُّمٌ عن لطيفٍ أي خَفِيٍّ "[٣]

والكهانة صنعة عرفتها العرب قبل الإسلام، يقال: كهن يكْهَنُ ويَكهُنُ، قضى له بالغيب[٤] فكانوا يقولون: إن لكل كاهن تابعًا من الجن يليق إليه الأخبار، فلما بُعث النبيﷺ وحرست السماء بالشهب بطل علم الكهانة، وأزهق الله أباطليهم بالفرقان الذي فرق بين الحق والباطل، وأطلع – سبحانه

---

[1] المفردات (728/1) مادة (ك هـ ن)

[2] النهاية (4/ 214) مادة (ك هـ ن).

[3] المعجم الاشتقاقي (4/ 1934) مادة (ك هـ).

[4] ينظر: المحكم (4/ 143) مادة (ك هـ ن).

وتعالى- نبيه (صلى الله عله وسلم) بالوحي ما شاء من علم الغيب، والتي عجزت الكهنة عن الإحاطة به[١].

وبالتأمل في دلالة أصوات الكلمة نجد أنها توحي بمعناه اللغوي من حيث اللطف والخفاء، فالكاف بهمسها وشدتها[٢] تدل على دقة هذا العلم ولطفه، والهاء تدل على العمق و خفاء الشيء في الباطن، والنون بجهرها تدل على الكشف والظهور لما هو مستكن في الباطن، وأثره في النفوس، ورفعة صاحبه في وسط قومه وزيوعه.

ولو تأملنا دلالة المقطع الصوتي في لفظ (كاهن) وهو (ص ح ح / ص ح ص)، نجد أنه يشتمل على مقطعين أحدهما من النوع المفتوح، والآخر من النوع المغلق، فيجسده المقطع الأول (ص ح ح) الذي يدل بمدّ حركته على العلامة على الشيء والدلالة عليه، كعلم الطريق مثلا مما يدل على اشتهار الصنعة واشتهار من عُرف بها ، كما أن تولي المقطع المغلق (ص ح ص) يدل على أنه صنعة متمكنة في نفس صاحبها. وهذا يوحي باستمرارية هذه الصنعة وتجددها في يدّ صاحبها ودوامها.

وقد نفى -سبحانه وتعالى -عن رسوله ﷺ هذا الوصف، فقال سبحانه ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور: ٢٩) ردًا على افتراءات المشركين عليهﷺ، وإثباتًا لنبوته التي أراد كفار قريش أن يبطلوها بقوله : هو ساحر، أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كما صرح القرآن الكريم بذلك؛ ولذا بدأت الآية الكريمة

---

[1] ينظر: التهذيب (6/ 18) مادة (ك هـ ن).

[2] ينظر: الرعاية صـ 173.

بأمر الرسول ﷺ بالمداومة على التذكير، وألا يلتفت إلى أقولهم؛ لأنهم ما أرادوا من قولهم إلا التسفيه والحطّ من شأنه ﷺ وهم يعلمون علمًا لا شبهة فيه أنه ليس كذلك، يقول الإمام القشيري:" قوله تعالى﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾، أي : أنهم يعلمون أنك لست بك كهانة ولا جنون، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه، فالسفيه يبسط لسانه فيمن يسبّه بما يعلم أنه من برىء"[1].

وجاء الوصف المنفي على صيغة (اسم الفاعل) دلالة على تجدد واستمرار نفي الوصف عنه ﷺ في كل أحواله من أقوال وأفعال مع المبالغة ، كما يوحي الوصف على استمرارية افتراءاتهم على الرسول ﷺ، فكأنه – سبحانه وتعالى– يربط على قلب رسوله بأنه برىء من كل ما يتهمونه به فلا يلتفت إلى ما قالوا أو ما سيقولون ، وفي ذلك من التسليه لحبيبه ﷺ ما فيه، ودلالة الملابسة في حرف الباء في قوله (بنعمة) أكدت ذلك المعنى،أي : أنت بريء من هذه الأوصاف ملتبسًا بنعمة ربك عليك بالنبوة، وحيث إن النبوة لا تفارقه، فكذلك نفي الوصفين باقٍ ببقائها؛ لأنهما ينافيان النبوة، يقول الإمام النسفي:" قوله تعالى:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم: ٢)، أي: برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾،كما زعموا، وهو في موضع الحال، والتقدير :((لست بكاهن ولا مجنون ملتبسًا بنعمة ربك))"[2].

---

[1] لطائف الإشارات (3/ 476).

[2] مدارك التنزيل (3/ 385).

وجاء الوصف المنفي على صيغة الجملة الاسمية دلالة على ثبوت ودوام نفي هذا الوصف عنه ﷺ، تبشيعًا لقولهم وتنزيهًا وتعظيمًا لنبيه ﷺ، يقول الإمام ابن عاشور:" وقد اشتملت هذه الكلمة الطيبة على خصائص تناسب تعظيم من وجهت إليه، وهي أنها صيغت في نظم الجملة الاسمية، فقيل فيها: ((ما أنت بكاهن) دون (فلست بكاهن)؛ لتدل على ثبات مضمون الخبر"[١] .

كما اشتملت الآية على أسلوب يطيب له قلب النبي ﷺ تسلية له، وهو إضافته إلى لفظ الجلالة في قوله: (بربك) تشريفًا للمصطفى ﷺ وردًا لكيد الطاعنين في نبوّته، وتأكيدًا على رسالته لا كما يقولون ﴿ **إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ** ﴾ (النحل: ١٠٣) ، يقول الإمام ابن عاشور:" وعدل عن استحضار الجلالة بالاسم العلم إلى تعريفه بالإضافة وبوصف رب؛ لإفادة لطفه – تعالى– برسوله ﷺ ؛ لأنه رُبُه يَرُبُّهُ وَيُدَبِّرُ، ولتفيد الإضافة تشريف المضاف إليه"[٢] .

و جاء النفي على صيغة (فاعل) (كاهن)؛ لأنه ﷺ ما عُرف بها ولا اشتهرت عنده لا قبل النبوة ولا بعدها،مما يدل على بطلان ادعائهم وتسفيه قولهم وعقولهم مع مبالغة وفيه من التهديد والوعيد ما فيه؛ لذا لم يأت السياق القرآني بدليل لنفي هذه الصفة عنه ﷺ لأن أمرها واضح وظاهر في حقه ، وقد ألمح الإمام ابن عاشور إلى ذلك، فقال:" وقد اكتفى في إبطال كونه كاهنًا أو مجنونًا بمجرد النفي دون الاستدلال عليه؛ لأن مجرد التأمل

---

[1] التحرير والتنوير (27/ 58).

[2] السابق (27/ 59).

في حال النبي ﷺ كافٍ في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه، فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى أكثر من الإخبار بنفيهما؛ لأن دليله المشاهدة"[١] .

١٤- ((اللوم)

عُرِّف اللَّوْمُ في اللغة بالعَذْل[٢]؛ حيث إنه لا يأت إلا بعد تمكُّث وتلبّث واستمرارية بفعل ما يلام عليه الإنسان ، فيعذل ردّعًا عن التجاوز[٣]، وفي ذلك يقول الإمام الراغب:" اللَّوْمُ: عَذْل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، يقال: لُمْتُهُ فهو مَلُومٌ، [٤]، وعرفه الدكتور جبل بقوله:" اللَّوْم : العَذْل : تعنيف يردع عن التجاوز"[٥] ، فاللوم منشأه التقصير فيما أُسند إلى الإنسان من مهام حتمية، فيقال:" لاَمَهُ لَوْمًا، عَذَلَهُ فهو مَلُومٌ على النَّقْص"[٦]، ورجلٌ لُوَمَةٌ، يَلُوُمُ الناس، ولُومة يُلاَمُ[٧].

وقد نفى المولى . عز وجل . هذه الصفة عن سيدنا محمد ﷺ؛ لما تضمنته من تقصير وعذل، وجاء النفي في سياق التسلية والتطمين لرسوله ﷺ، وآثر السياق في هذا المقام صيغة واحدة وهي :

صيغة اسم المفعول "ملوم":

فقال تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ (الذاريات: ٥٤).

---

[1] السابق نفسه.

[2] ينظر: الصحاح (٥/ ٢٠٣٤)، المصباح المنير (٢/ ٥٦٠) مادة (ل و م).

[3] ينظر: المعجم الاشتقاقي (4/ 1999) مادة (ل و م).

[4] المفردات صـ 751 مادة (ل و م).

[5] ينظر: المعجم الالاشتقاقي (4/ 1999) مادة (ل و م).

[6] ينظر:المصباح المنير (2/ 560) مادة (ل و م).

[7] المقاييس (8/ 343) مادة (ل و م).

نفى . سبحانه وتعالى . اللوم عن رسوله ﷺ لأنه لم يحدث منه قط تقصير في رسالته ونشر دعوته، بل كان شديد الحرص على إيمانهم، ويكلف نفسه فوق طاقتها في الدعوة طمعًا في هداية الناس جميعًا، فكان . سبحانه وتعالى يُعَاود تسليته الفيْنَة بعد الفَيْنة، كما قال تعالى : ﴿ **لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (الشعراء : ٣)، وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢).

والمعنى: أعرض عن الذين كذبوا برسالتك، فلا لوم عليك في إعراضهم، فقد بلغت ما أرسلت به وما قصرت في ذلك، واترك أمرهم إلينا[١]، والآية الكريمة تسلية وتعزية لقلب رسوله ﷺ على تفريط قومه في عدم اتباعه، لأن ذلك كان يحزن صدره، وينسب لنفسه التقصير في ذلك، فنفى –سبحانه وتعالى– عنه التقصير، فقال تعالى: ﴿ **فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ** ﴾،أي: لست تلام على ذلك إنما أنت مذكر، يقول الإمام الرازي:" قوله تعالى:﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ** ﴾ هذه تسلية أخرى، وذلك لأن النبي ﷺ كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى التقصير ، ويقول: إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبلغ، فيجتهد في الإنذار والتبليغ، فقال تعالى: قد أتيت بما عليك ولا يضرك التولي عنهم، وكفرهم ليس لتقصير منك، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد"[٢].

---

[1] ينظر: بحر العلوم (3/ 348)، لطائف الإشارات (3/ 469)المحرر الوجيز (5/ 182).

[2] مفاتيح الغيب (28/ 191).

وفي نفي اللوم نفي لمقتضاه وهوالتقصير في التبليغ ، وفيه تطمين لقلب النبي (صلى الله علي وسلم) وتسليه لصدره؛ لذا آثر السياق القرآني مجيء النفي على صيغة الجملة الاسمية دون غيرها؛ دلالة على ثبات واستمرار نفي التقصير عنه ﷺ وديموميته وكذا دوام متعلق النفي وهو التسلية وتطمين قلب النبي ، وأُكد هذا النفي بالباء لتوكيد معنى النفي وتوكيد متعلقه،وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور:" وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية دون (لا نلومك) للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي، وجيء بضمير المخاطب مسندًا إليه، فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، دون أن يقول: (ملام عليك) أو نحوه للاهتمام بشأن المخاطب وتعظيمه، وزيدت الباء في الخبر المنفي؛ لتوكيد نفي أن يكون ملوما"[1].

وعطف عليه قوله:﴿ وَذَكِّرْ ﴾دلالة على أن التذكير لا ينقطع، ولا يحدث له عذل عن الرساله؛ لأنه بلغ ما أمر به بأمانه في كل أوقاته، وفيه ذلك تطمين لقلب رسوله ﷺ أنه مهما حدث بعد ذلك فلا تلوم نفسك، وروى أنه لما نزلت هذه الآية اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذل قد حضر، فأنزل الله – تبارك وتعالى – بعد ذلك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥)[2].

يقول الإمام ابن عاشور:" وعطف﴿ وَذَكِّرْ ﴾على قوله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ احتراس كي لا يتوهم أحد أن الإعراض إبطال للتذكر بل التذكر باق، وفي

---

[1] التحرير والتنوير (27/ 23).

[2] ينظر: الكشاف (4/ 405).

الاستمرار عليه زيادة في إقامة الحجة على المعرضين؛ ولئلا يزدادوا طغيانا، فيقولون ها نحن أولاء قد أفحمناه فكف عما يقول"[١].

وللمقطع دور بارز في تجسيد هذا المعنى وتتكون كلمة (ملوم) من المقطعين (ص ح/ ص ح ص) فالكلمة تبدأ بالمقطع القصير المفتوح الذي يدل بسرعته على الاستمرارية ، كما يدل المقطع (ص ح ص) بانغلاقه على المبالغة في تطمين قلب النبي ﷺ بأنه لم يقصر في أمر الدعوة وأنه لا يلحقه عذل في ذلك؛ لذا جاء بعد ذلك مباشرة الأمر بالتذكير دلالة على المداومة على التذكر وتجديده ، فالمقطع هنا جسد المعنى بصورة جلية، وهذا قريب مما قاله الإمام ابن عاشور بعاليه.

[1] ينظر: التحرير والتنوير (27/ 24).

المبحـــث الثالث

الوحـــدات النحـــوية التركيبية وأثر السياق فيها

يراد بالوحدات النحوية التركيبية هنا: كل ما دلّ على معنى يوصف به التركيب أو الجملة بأسرها، وذلك مثل: الاستفهام والأمر ، أو غير ذلك مما أسماه ابن فارس " معاني الكلام "[١].

وتنقسم هذه الوحدات التركيبية وفقًا لعلاقتها بالمتكلم والمخاطب إلى قسمين هما:

الأول: وحدات نحوية تتعلق بموقف المخاطب من موضوع الحديث، ويمكن أن يطلق على هذه الوحدات النحوية التركيبية المتعلقة بالمخاطب " الوحدات النحوية الخبرية، وقد ترد هذه الوحدات في حالة النفي وفي حالة الإثبات وهذا النوع تختص به اللغة العربية، إذ لا نجد تقسيمًا مماثلاً لذلك فيما نعرفه عن المعاني النحوية في اللغات الأخرى"[٢].

الثاني: وحدات نحوية تتعلق بموقف المتحدث أو علاقته بموضوع الحديث، ويطلق عليها" الوحدات النحوية الإنشائية " وتوجد في جميع اللغات وإن كانت تختلف في العدد من لغة إلى أخرى"[٣].

---

[١] دلالة السياق صـ ٢٢٨.

[٢] السابق صـ ٢٣٠ (بتصرف).

[٣] السابق صـ ٢٢٩ (بتصرف).

أولا: الخبر :

يقول ابن فارس: " أهل اللغة لا يقولون في الخبر أكثرَ من أنّه إعلامٌ، تقول: (أخبرتُه، أخْبِرْه) والخبر هو العلم، وأهل النظر يقولون: الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه. وهو إفادة المخاطَب أمرًا في ماضٍ من زمان أو مستقبل أو دائم. نحو (قام زيد)، و(يقوم زيد)، و(قائم زيد) "[١].

الأصل في الخبر أن يلقى لغرضين هما : فائدة الخبر، ولازم الفائدة ، وقد يخرج الخبر عن هذه الأغراض إلى أغراض مجازية أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال[٢]، وبتتبع الآيات القرآنية في البحث الذي بين أيدينا نجد أن الخبر خرج عن معناه الأصلي إلى معاني مجازية منها ما يلي:

١- التسلية والتعريض بالوعيد:

ومما ورد من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]

هذا إخبار من الله . سبحانه وتعالى . لنبيه ﷺ بإحاطة علمه . عز وجل . بما يحزن قلب حبيبه ﷺ، والمعنى: قد نعلم يا محمد إنه ليحزنك قول المشركين "إنك كاذب" فإنهم في الحقيقة لا يكذبونك بل يعلمون أنك صادق فيما تقول ، وإنما يكذبون الله بجحود آياته[٣].

فالخبر في الآية لم يأت لإفادة الرسول ﷺ بأن الله يعلم ما يحزنه؛ لأن علم الله محيط بكل شيء لكنه جاء لمعنى مجازي آخر وهو التسلية والتعزية

---

[١] ينظر: الصاحبي صـ ١٣٣.

[٢] ينظر: أساليب بلاغية صـ ١٠٢.

[٣] ينظر: لطائف الإشارات (١/ ٤٧٨)، الكشاف (٢/ ١٧).

للرسول ﷺ عما ناله من الحزن والغم بنسبة التكذيب إليه ﷺ وقد صرح بذلك المعنى الإمام أبو السعود فقال:" الآية استئنافٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يعتريه مما حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه (عليه الصلاة والسلام) بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة"[١].

فنفى سبحانه وتعالى التكذيب عن رسوله ﷺ وأثبته لآياته؛ إيذانًا بكمال القرب منه . عز وجل . ، واهتمامًا وتعظيمًا لقدره ﷺ عند ربه، وفيه من التعزية والتسلية والحث على التصبر ما فيه[٢]؛ لذا عبر السياق عن إنكارهم لدعوته بالجحد تغليظًا وتقبيحًا لفعلهم ، واستعظامًا لجنايتهم ، وفيه من الوعيد ما فيه فعلم الله كناية عن المحاسبة[٣].

** ومما ورد من ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [ق: ٤٥] .

تسلية أخرى للنبي ﷺ وتطمين لقلبه الشريف ، فالمولى سبحانه وتعالى يعاود تطمينه وتسليته الفَيْنَة بعد الفَيْنَة؛ لشدة حرصه ﷺ على هدية قومه، وحزنه الشديد بسبب كفرهم وعنادهم، فأخبره . عز وجل . أنه لم يُبعث ليجبرهم على الإيمان وإنما بُعث مبشرًا ونذيرًا[٤]

---

[١] إرشاد العقل السليم (٣/ ١٢٦)، وينظر: روح المعاني (٤/ ١٤٧).

[٢] ينظر: روح المعاني (٤/ ١٢٨).

[٣] ينظرالسابق نفسه .

[4] ينظر: بحر العلوم (٣/ ٣٤٠)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤١٢).

وأنه أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله وتكذيبهم بآيته، وأنه ﷺ ليس من وظيفته هديتهم إنما بُعث مذكرًا[١] .

ويُلمح من ذلك أن الخبر هنا لم يأت على حقيقته لكنه جاء لمعنى آخر فُهم من سياق المقام وقرائن الأحول وهو التسلية للنبي ﷺ إزالة لحزنه وتطمينًا لصدره الشريف، كما يُلمح من سياق الخبر معنى التهديد والوعيد لهؤلاء المعاندين؛لأن الله سيتولى حسابهم [٢]. فعلم الله كناية عن المحاسبة ، وقد أشار إلى ذلك المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" قوله تعالى :" ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩] فهو إيغال في تسلية النبي ﷺ وتعريض بوعيدهم ، فالخبر مستعمل مجازًا في وعد الرسول ﷺ بأن الله سيعاقب أعداءه ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ تطمين للرسول ﷺ بأنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم؛ لأنه إنما بُعث داعيًا وهاديًا، وليس مبعوثًا لإرغامهم على الإيمان " [٣]

. ومما ورد من ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية : ٢٢]

أي: لست قاهرًا مكرهًا لهم تجبرهم على ما تريد وتتعهد أحوالهم، وتكتب أعمالهم، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الزمر: ٤١] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ

---

[1] ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٨٣).

[2] ينظر: الكشاف (٤/ ٣٩٣).

[3] التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣٣).

مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] [١] .

فالخبر المنفي في سياق الآية الكريمة خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهوالتطمين والتسلية للنبي ﷺ ونفي التقصير عنه، يقول الإمام ابن عاشور:" ونفي كونه مصيطرًا عليهم خبر مستعمل في غير الإخبار؛ لأن النبي ﷺ يعلم أنه لم يكلف بإكراههم على الإيمان، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التبعة" [٢] .

ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨] أي: تحفظ عليهم أعمالهم وتراقبهم عليها على الدوام وتجبرهم على الإيمان إن عليك إلا البلاغ[٣]، والآية الكريمة تطمين للنبي ﷺ وتأنيسًا له وإزالة لهمه بهم ورفعًا للتبعة عنه[٤]، وهذا ما أفاده الخبر المنفي في سياق الآية الكريمة،وفي ذلك يقول الإمام ابن عطية :" ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا ﴾ تأنيس لمحمد (عليه والسلام) وإزالة لهمه بهم، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ وتوصيل الحجة "[٥]

كما أفاد الخبر معنى آخر وهو التعريض بالمشركين والتهديد والوعيد

---

[1] ينظر: تفسير المراغي (٣٠/ ١٣٩).

[2] التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٠٧).

[3] ينظر: جامع البيان (٢١/ ٥٥٦) ، بحر العلوم (٣/ ٢٤٩).

[4] ينظر: المحرر الوجيز (٥/ ٤٢) .

[5] المحرر الوجيز (٥/ ٤٢).

الشديد لهم، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور فقال:" ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ ﴾ أى: حارسًا ومسؤولا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم ، فيعلم أن الله سيتولى عقابهم " [١]

فالخبر مستعمل في التسلية للرسول ﷺ، والتعريض بالوعيد للكفار المعاندين لأن الله سيتولى حسابهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشورى: ٦]

يخاطب المولى سبحانه وتعالى رسوله ﷺ تأنيسًا وإزالة لهمه وحزنه بسبب عناد المشركين وكفرهم ، وأنه ﷺ ليس مسؤولا عن كفرهم وإعراضهم، بل أدى ما عليه من التبليغ والدعوة، والله رقيب على جميع أحوالهم وهو محاسبهم عليها ، وهذا أبلغ في التخويف والتهديد لهم.

فالخبر في الآية الكريمة لم يأت لمجرد الإخبار بمضمون الآية الكريمة بل جاء مسوقًا لغرضين دلاليين ، **الأول** : التسلية وتسكين حزن النبي ﷺ ، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور، فقال:" ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ تسكين لحزن الرسول ﷺ من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله " [٢]

والثاني: ضُمن الخبر معنى التعريض بالتهديد والوعيد، وقد ألمح إلى ذلك الإمام الزمخشري، فقال:" الله رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا قريب عليهم إلا هو وحده "[٣]

---

[1] التحرير والتنوير (١٣٥/٥).

[2] التحرير والتنوير(٢٥/ ٣١).

[3] الكشاف (٤/ ٢١٠).

٢-التنزيه :

ومما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]

والمعنى : وما كان لنبي أن يخون أمته في تقسيم الغنائم بكتمان شيء منها وما صح له ذلك؛لأن النبوة تنافي الغلول، فالغلول معصية والنبي ﷺ معصوم من المعاصي، وفيه إشاره إلى أنه ﷺ لا ينبغي أن يتوهم فيه ذلك ولا ينسب إليه [١].

فالخبر في سياق الآية الكريمة جاء لإفادة معنى دلالي يفهم من السياق وهو تنزيه ساحة النبي ﷺ من هذه التهمه أو نسبتها إليها، وقد صرح بذلك الإمام الألوسي، فقال:" المراد : تنزيه ساحة النبي ﷺ على أبلغ وجه عما ظن الرماه به يوم أحد... أو تنزيهه ﷺ عما اتهمه به بعض المنافقين يوم بدر "[٢]

وقد استخدم السياق القرآني صيغة الجحود لنفي ذلك عنه (صلى الله عليه وسلم) مبالغة في نفي ذلك عنه ﷺ مما يستوجب المبالغة في تنزيهه وتعظيمه ووجوب توقيره ﷺ، كما أنه يستوجب المبالغة في النهي عن نسبة الغلول إليه ﷺ [٣].

---

[1] ينظر: معاني القرأن للزجاج (١/ ٤٨٣)، الوجيز صـ ٢٤٠، البحر المحيط (٣/ ٤١٢).

[2] روح المعاني (٢/ ٣٢)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٣٣)، فتح القدير (١/ ٤٥٢)،

[3] ينظر: الدر المصون (٣/ ٤٦٥)، روح المعاني (٢/ ٣٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]

نزلت الآية الكريمة ردًا لقول كفار مكة إن محمدًا شاعر وما يقوله شِعْر، فأنزل الله تكذيبًا لهم ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ كناية عن أن النبي ﷺ مُعَلمٌ من عند الله وأن القرآن الكريم ليس بشعر، وقد أشار إلى ذلك المعنى الإمام ابن عاشور، فقال:" وبني الرد عليهم عن طريق الكناية بنفي تعليم النبي ﷺ الشعر؛ لما في ذلك من إفادة أن القرآن مُعَلّم للنبي ﷺ من قبل الله تعالى، وأنه ليس بشعر وأن النبي ﷺ ليس بشاعر" [١]

فالخبر جاء في سياق الآية الكريمة لتنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعرًا ؛ لأنه لم يتأت له قرض الشعر ولا هو في طبعه، فهو ﷺ منزه عن ذلك منعًا من دخول الشبهة ، وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي:" وإنما مُنع من قول الشعر ؛ لئلا تدخل الشُّبهة على قوم فيما أتى به من القرآن، فيقولون: قوي على ذلك بما في طبعه من الفطنة للشِّعر " [٢] وكذا جاء الخبر لتنزيه القرآن الكريم عن أن يكون شعرًا؛ لاشتمال الشعر على تخييلات كاذبة؛ لذا قال سبحانه عقب ذلك ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ على أسلوب القصر ؛لتأكد مضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور:" وجيء بصيغة القصر المفيدة قصر الوحي على الاتصاف بالكون ذكرًا وقرآنًا قصر قلب، أي: ليس شعرًا كما زعمتم، فحصل

---

(1) التحرير والتنوير (٢٣/ ٥٦).

(2) زاد المسير (٣/ ٥٣١).

بذلك استقصاء الرد عليهم وتأكيد قوله : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ "[1]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]

وقد اختلف القراء في قراءته، فقرأه الإمام ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالضاد[2] .

فمن قرأها بالضاد كان المعنى: وما هو على الغيب ببخيل ، اسم فاعل من ضنّ بمعنى بخِل[3]، أي: يكتمه ولا يبينه حتى يأخذ عليه حُلوانًا كالكاهن، بل يؤديه بكل أمانة كما أُمر والقراءة الثانية " بظنين " بالظاء المعجمة من ظننت زيدًا بمعنى اتهمته[4] ، وتواتر القراءتين دليل على إرادة المعنيين، والخبر في سياق الآية الكريمة على معنى القراءتين تضمن معنى مجازيًا وهو تنزيه الرسول ﷺ عن الكذب والخيانة، بل هو الثقه ، وقد ألمح إلى ذلك الإمام ابن عاشور، فقال: فأما معنى "ضَنِين " بالضاد الساقطة، فهو البخيل الذي لا يعطي ما عنده... أي: وما صاحبكم ببخيل ، أي: بما يوحى إليه وما يخبر به عن الأمور الغيبية؛ طلبًا للانتفاع بما يخبر به بحيث لا ينبئكم عنه إلا بعوض تُعطُونه، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهنًا أو عرافًا يتلقى الأخبار عن الجنّ "[5]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢]

---

[1] التحرير والتنوير (٢٣/٦٥).

[2] ينظر: السبعة في القراءات صـ 674، المبسوط في القراءات العشر صـ 464.

[3] ينظر: الهادي شرح طيبة النشر (3/ 337).

[4] ينظر: الهادي شرح طيبة النشر (3/ 337)، والمواهب اللدنية (2/ 566).

[5] التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٣)

نزه المولى سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ ونفى عنه أن يكون شاعرا أو كاهنا ردًا على كفار مكة عندما اتهموه بذلك ، فنزهه سبحانه وتعالى عن هذين الوصفين إثباتًا لنبوته وتحقيقًا لرسالته.

فالخبر المنفي في الآية الكريمة جاء لمعنى كنائي رشحه السياق القرآني وهو تنزيه النبي ﷺ وتكريمه بنفي هذين الوصفين عنه، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور ، فقال:" وكُنّي بنفي أن يكون قول شاعر أو قول كاهن عن تنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعرًا أو كاهنًا ردًا لقولهم : هو شاعر أو كاهن "[1]

ثانيًا :الإنشاء

الإنشاء هو :" فهو ما لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا لذاته" [٢].

والأساليب الإنشائية على ضربين:

١-طلبي:: وهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب، كأسلوب الأمر والاستفهام والنهي والتمني والنداء[٣]

٢- غير طلبي: وهو مالا يستدعي مطلوبًا، كالتعجب والقسم والرجاء وصيغ العقود.

أولا : الإنشاء الطلبي :

*** الاستفهام :**

" هو طلب خبر ما ليس عند المستفهم، ويسمي بالاستخبار[٤] أو:" طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل، وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية، وهي:الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأنى، وكم،

---

[1] التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٢).

[٢]ينظر: المنهاج الواضح في البلاغة، (١/ ٢٦).

[٣] ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع صـ ٦٩.

[٤] ينظر: البرهان في علوم القرءان (٢/ ٣٢٦)، الصاحبي صـ ١٣٤.

وأي"[1].**لكنه قد** يخرج عن معناه الحقيقي إلى معان مجازية تستفاد من سياق الحديث ودلالة الكلام، ومما ورد من ذلك ما يلي :

١- الإنكار والتوبيخ

ومن ذلك قوله تعالى : قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] .

تحدث السياق القرآني في الآية الكريمة عن دعوى المشركين واتهامهم الرسول ﷺ بافتراء القرآن الكريم بعد أن قدم وصف القرآن الكريم بما يقتضي بُعده عن هذا الافتراء بالدلائل الواضحة في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧]

والاستفهام في الآية الكريمة غير محمول على ظاهر؛ لأن المستفهم هو المولى سبحانه وتعالى وهو يعلم ما تخفي الصدور؛ لذا ضُمنه بعض العلماء معنى التقرير؛ إثباتا للحجة عليهم بمعجزة القرآن، فإن كان ما يقولونه بأن محمدًا (صلى الله عليهم وسلم) افتراه، فأتوا بسورة من مثله في البلاغة والنظم وصحة المعنى، فإن عجزتم دلّ عجزكم على أنه لم يختلقه ، وقد صرح بذلك الإمام مكي بن أبي طالب، فقال:" هذا تقرير لهم لإقامة الحجة عليهم، ومعناه: أيقولون هؤلاء المشركون: اختلق محمد القرآن من عند نفسه، فأمر الله عز وجل نبيه أن يقول لهم: نبين لهم أنه لا يمكن أن

---

[1] جواهر البلاغة (١/ ٧٨).

يكون من عند بشر، فإن أمكن فقل لهم يا محمد: {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ" [١]

بينما أضاف الإمام الزمخشري دلالة أخرى للاستفهام في الآية الكريمة وهي الإنكار والاستبعاد، فقال:" ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أوإنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان "[٢].

وضمنه الإمام الشوكاني معنى التقريع والتوبيخ، فقال:" (أيقولون افتراه)، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، ثم أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم "[٣]

وحمل الإمام ابن عاشور الإنكار في الآية الكريم على التعجّيب من قولهم بعد وضوح الدلائل على صدقه وصدق ما جاء به ، فقال:" ومن بديع الأسلوب، وبليغ الكلام أن قدم وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء، وبما فيه من أجلّ صفات الكتب، وبتشريف نسبه إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءً؛ ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد من الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها؛ فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيز الاستفهام الإنكاري التعجيبي"[٤] .

*** ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

---

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٢٦٨).

(2) الكشاف (٢/ ٣٤٧).

(3) فتح القدير (٢/ ٥٠٧).

(4) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٠).

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤]

خرج الاستفهام في الآية الكريمة عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهو الإنكار؛ حيث إن السياق القرآني يتحدث عن دحض شبه المشركين حول افتراء القرآن الكريم بعد ظهور الدلائل والبراهين على أنه منزل من عند الله؛ لذا قرعهم سبحانه وتعالى بالحجة والاستفهام الإنكاري، وقد صرح بهذه الدلالة الإمام ابن عاشور، فقال:" ... التقدير : بل أيقولون افتراه، والإضراب انتقالي في قوة الاستئناف الابتدائي، فللجملة حكم الاستئناف، والمناسبة ظاهرة؛ لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، قرعهم بالحجة والاستفهام إنكاري" [1]

ومما ورد من ذلك أيضا قوله تعالى: :" ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] .

هذا ادعاء آخر من المشركين على الرسول الكريم ﷺ فقد وصفوه بالجنون مع علمهم أنه ﷺ أرجح الناس عقلا وحكمة؛ لكنه لما جاء هم بما يخالف هواهم جحدوه تعصبًا ورموه بالجنون كذبً وافتراءً [2] ؛ لذا حكى السياق القرآني ذلك بلفظ الاستفهام توبيخًا لهم وإنكارًا لقولهم؛ للبون الواضح بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين هذيان ذي الجِنّة [3] وعلل الإمام الرازي لوصفهم إياه ﷺ بهذه الفرية فقال:"ولقد كان من المبغضين له

---

[1] التحرير والتنوير (١٢/ ١٩).

[2] ينظر: فتح القدير (٣/ ٥٨٣).

[3] ينظر: المحرر الوجيز (٤/ ١٥١)، روح المعاني (٩/ ٢٥٢) .

ﷺ من سمّاه بذلك، وفيه وجهان: أحدهما : أنهم نسبوه إلى ذلك حيث كان يطمع في انقيادهم له، وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم، فنسبوه إلى الجنون لذلك، والثاني: إنهم قالوا ذلك إبهاما لعوامهم لكي لا ينقادوا له، فأوردوا ذلك مورد الاستحقار، ثم إنه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه، ونبَّه على فسادها قال: ﴿أَبَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾"[١].

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك بلفظ الاستفهام توبيخًا لهم وانكارًا واستبعادًا لقولهم، وقد ألمح الإمام الزمخشري إلى دلالة الإنكار والاستبعاد، فقال:" أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به، بل أجاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ فلذلك أنكروه واستبدعوه"[٢]،بينما ضمن الإمام ابن عطية الاستفهام في الآية الكريمة معنى التوبيخ ، فقال:" وقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۚ﴾ توبيخ أيضا لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين كلام ذي الجنة لا يخفى على ذي فطرة"[٣].

يتضح من خلال ما سبق أن الاستفهام جاء في معرض النفي لدحض شبه المشركين وافتراءتهم، فخرج عن ظاهره في الآية الكريمة ؛ حيث إن الاستفهام الحقيقي يكون في معرض خطاب العقلاء ، لكان لما حاد هؤلاء المعاندين عن الصواب مع وضوح الأدلة والبراهين، وخرجوا عن جادة الطريق ، خاطبهم خطاب غير العقلاء، فخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى التقريع والتوبيخ لهم والإنكار والاستبعاد لأقوالهم.

---

[1] مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٦).

[2] الكشاف (٣/ ١٩٤).

[3] المحررالوجيز (٤/ ١٥١) وينظرك البحر المحيط (٧/ ٥٧٤)، فتح القدير (٣/ ٥٨٣).

ومن ذلك قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]

يخاطب المولى سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) ليدفع عنه الحزن المتكرر بسبب إعراضهم عن دعوته مع حرصه الشديد على هدايتهم، فبين سبحانه وتعالى أن بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم الشديد عن الدلائل كان بسبب عنادهم وإضمارهم الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأن الله خالقهم ورازقهم؛ لذا عجّب رسوله ﷺ من قبح مسلكهم وشناعة حالهم بالاستفهام التعجيبي المشوب الإنكاري المتصدر في أول الآية؛ حيث إن مثلهم لا يرجى هدايتهم لأنهم جعلوا هواهم إلههم[1]، يقول الإمام الألوسي:" ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال، والتنبيه على ما لهم من المصير والمآل، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه"[2] ثم أعقبه باستفهام آخر متضمن معنى الإنكار والاستبعاد، فقال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ أي: حفيظًا ومسيطرًا تدعوه إلى الإسلام، وتزجره عما هو عليه من الضلال، فالاستفهام هنا خرج من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي اقتضاه السياق وهو الإنكار والاستبعاد [3] ، وقد صرح

---

[1] ينظر: مفاتيح الغيب (٢٤/ ٤٦٢)، تفسير المراغي (١٩/ ٢٠)،التحرير والتنوير (١٩/ ٣٦).

[2] روح المعاني (١/ ٢٤).

[3] ينظر: البحر المحيط (٨/ ١١٠)، إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٢١)، التحرير والتنوير (١٩/ ٣٦).

بذلك الإمام الشوكاني، فقال:" ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد، أي: أنت تكون عليه حفيظًا وكفيلا ترده إلى الإيمان وتخرجه من الكفر، ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه، فليست الهداية والضلال موكولتين إلى مشيئتك وإنما عليك البلاغ"[١]

ومثله قوله تعالى:" ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣]

لم يأت النفي في سياق الآية الكريمة على معناه الحقيقي، بل ضمنه بعض العلماء معنى الإنكار التعجيبي[٢]، وضمنه البعض الآخر معنى التقريع والتوبيخ[٣]؛ حيث إن القائل به إما متعنت متعصب للكفر مع ظهور الأدلة على بطلان قوله، وعلمه أنه من الله تعالى لظهور الإعجاز له بعجزهم عن الاتيان بمثله فهو منكر لكل ذلك، أو صادر من جاهل يردد ما يقوله كفار مكة دون تدبر أو تأمل كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] فيتعجب من حاله لبشاعة فعله وقبح مسلكه ، وقد صرح الإمام الزمخشري بأن الاستفهام هنا إنكاري تعجيبي، فقال:" وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ ﴾ لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، إنكارًا لقولهم وتعجيبًا منه لظهور أمره:

---

[1] فتح القدير (٤/ ٩٠).

[2] ينظر: الكشاف (٣/ ٥٠٦)، أنوار التنزيل (٤/ ٢١٩)، مدارك التنزيل (٣/٥).

[3] ينظر: فتح القدير (٤/ ٢٨٥).

في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك"[1] بينما ضمنه الإمام الشوكاني معنى التقريع والتوبيخ، فقال:" (أم) في

«أَمْ» فِي ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى: بل والهمزة، أي: بل أيقولون هو مُفترًى، فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضَمّن للتقريع والتوبيخ "[2] .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]

ضمن الاستفهام في الآية الكريمة معنى الإنكارلقولهم والتعجيب من قبح افتراءهم، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور، فقال:" والاستفهام للتّعجيب من حالهم والإنكار عليهم "[3]

وقد سبقه إلى ذلك الإمام الشوكاني، فقال:" والاستفهام في ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ للإنكار عليهم؛ حيث لم يتفكروا في شأن الرسول ﷺ وفيما جاء به "[4]

---

[1] الكشاف (٣/ ٥٠٦).

[2] فتح القدير (٤/ ٢٨٥).

[3] التحرير والتنوير (٩/ ١٩٣).

[4] فتح القدير (٢/ ٣٠٩).

ثانيا: الإنشاء غير الطلبي :

*** القسم:**

ويكون بالواو والتاء والباء[١] والغرضُ من إنشاء الْقَسَمِ تأكيد الجملة الخبريَّة[٢]؛ لأن فيه إشعارًا من جانب المقسم بأن المقسم عليه هو أمر مؤكد عنده لا شك فيه، وإلا لما أقسم عليه قاصدًا متعمدًا[٣] .

مما ورد من ذلك قوله تعالى : ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (ن:٣).

وقعت هذه الآية جوابًا لافتراء المشركين بوصفهم الرسول ﷺ بالجنون في قولهم: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦] فأنزل الله تعالى ردًا عليهم وتكذيبًا لقولهم ما أوجب لصدره ﷺ من الوحشة من قول الأعداد عنه (إنك لمجنون) أزاله عنه بنفيه محققًا ذلك بالقسم وغيره من مؤكدات [٤]،وقد بيّن ذلك الإمام ابن عاشور، فقال:" وقد أجيب قولهم وتأكيدهم ذلك بحرف (إنّ) ولام الابتداء؛ إذ قالوا: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ بمؤكدات أقوى مما في كلامهم إذ أُقسم عليه وجيء بعد النفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده، وبالجملة الاسمية للدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر، أي: تحققه، فهذه ثلاث مؤكدات "[٥].

فالوصف المنفي في سياق الآية الكريمة جاءعلى أسلوب القسم توكيدًا وتشديدًا ومبالغة فى انتفاء الوصف الزميم عنه ﷺ لكمال نزاهته ﷺ وعصمته

---

[1] ينظر: أساليب بلاغية صـ ١٠٨.

[2] البلاغة العربية (١/ ٢٢٧).

[3] علم المعاني صـ ٥٨.

[4] ينظر: لطائف الإشارات (٣/ ٦١٦)، تفسير السمعاني (٦/ ١٧).

[5] التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٢).

بالنبوة من هذا الوصف الزميم، وفي ذلك يقول الإمام أبو حيان:" وجواب القسم ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ويظهر أن (بنعمة الله) قسم اعتُرض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الزميم عنه ﷺ "[1]

وجاء القسم في الآية الكريمة بالقلم؛ ليبرهن بأن الدافع الرئيس لقولهم هذا هو الحسد والعناد كما قال تعالى على لسانهم ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤] لذا ضمن القسم في الآية الكريمة معنى التسلية، وقد صرح بذلك الإمام ابن عاشور ، فقال:" وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللاّمزين له بالمجنون إنما هو ما أتاهم به من الكتاب، والمقسم عليه نفي أن يكون النبي ﷺ مجنونًا والخطاب له بهذا تسلية؛ لئلا يحزنه المشركين لما دعاهم إلإسلام"[2]

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]

الخطاب في الآية الكريمة تنزيه وتبرئة وتسلية للرسول ﷺ من افتراء أهل مكة عليه بأنه مجنون، فنفى السياق القرآني ذلك عنه محققًا ذلك بالقسم المنفي والباء المزيدة بعد القسم؛ لإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه على النبي ﷺ بأنه مجنون،وفي ذلك يقول الإمام ابن عاشور: "... فبعد أن أثنى الله على القرآن بأنه قول رسول مرسل من الله، وكان قد تضمن ذلك ثناء على النبي ﷺ بأنه صادق فيما بلغه عن الله تعالى، أعقبه بإبطال بهتان

---

[1] البحر المحيط (١٠/ ٢٣٥).

[2] البحر المحيط (١٠/ ٢٣٥).

المشركين فيما اختلقوه عن النبي ﷺ من قولهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] وقولهم : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ﴾ [سبأ: ٨] فأبطل قولهم إبطالا مؤكدًا ومؤيدًا، فتأكيده بالقسم وبزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ إليه وصفه بأن الذي بلّغهُ صاحبهم، فإن وصف صاحب كناية عن كونهم يعلمون خُلُقه وعقله ويعلمون أنه ليس بمجنون؛ إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه"[١]

ومما ورد من ذلك أيضا بالقسم تنزيها وتأكيدًا قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]

وقعت الآية الكريمة ردًا على المشركين في اتهامهم الرسول ﷺ بالجنون والسحر وقولهم إنه شاعر؛ حيث إن الجنون ضلال ، والشعر غواية، والسحر ضلال وغواية[٢] فأقسم سبحانه وتعالى بعظيم مخلوقاته ببراءته ونزاهته من هذين الوصفين بأنه ما حاد عن الحقّ ولا زال عنه، ولكنه على استقامة وسداد[٣]، وقد صرح بذلك الإمام ابن كثير، فقال:" قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول (صلوات الله وسلامه عليه) بأنه بارّ راشد تابع للحق غير ضال ... فنزه الله . سبحانه وتعالى . رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال وطرائق اليهود وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو صلوات الله وسلامه عليه

---

(1) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٥٧).

(2) السابق (٢٧/ ٩٢).

(3) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٤٩٧).

وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد "[1]

فالقسم في الآية الكريمة جاء تنزيها وتسلية للرسول ﷺ كما أن المقسم عليه يوحي بالتوبيخ والتقريع لكفار مكة بسبب فريتهم مع تيقنهم بأنه برئ منها، وهذا ما أومأ إليه التعبير بلفظ (صاحب) وقد أشار إلى ذلك الإمام الألوسي، فقال:" وإيراده (عليه الصلاة والسلام) بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبرا ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما نفي عنه بالكلية " [2]

مما سبق يتضح أن القسم في سياق الآيات جاء مؤكدًا لنفي اتصاف الرسول ﷺ بهذه الصفات الزميمة، مما يدل على كمال التنزيه والتسلية والتطمين له ﷺ.

---

[1] روح المعاني (١٤/ ٤٦).

[2] تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٢).

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعد ،،،

فهذه خاتمة بحث دار حول الصفات المنفية عن رسول الله ﷺ في القرآن الكريم دراسة دلالية، تناولت فيها دلالة هذه الصفات، وأثر أصوات كل صيغة منها في الدلالة على معناها، كما حاولت أن أبين أثر المقطع الصوتي ثم الصيغة، وكذا دراسة الوحدات النحوية وأثر السياق فيها في هذه، وبعد الدرس والتحليل تبين ما يلي:

١-أن الله قد مدح رسوله ﷺ وشرفه وكرمه فكفاه أمر المستهزئين ، ودحض عنه افتراءاتهم الباطلة ، بالحجج والبراهين ، ولم يتأت ذلك لأحد قبله من الأنبياء والمرسلين .

٢-أن هذه الصفات قد جاء بعضها على صيغ المبالغة، وبعضها جاء على المصدر، وكلاهما يرشح المعنى ويقويه بما يتناسب مع أخلاقه ﷺ ودحض شبه المعاندين عنه ، وتوعدهم بالعذاب الأليم.

٣-أن بعض هذه الصفات التى قد نفاه المولى عنه اسم من أسمائه الحسنى وصفة من صفاته العليا؛ ونفاها عنه رأفة ورحمة به وتحنانًا عليه؛ ليبين مدى حبه له، وقربه منه؛ حيث إن هذه الصفات لا تقع في مقدور البشر ولو كان سولا نبيًا.

٤-أن كل صفة من هذه الصفات قد تكونت من حروف صورت معاني هذه الصفات وأوحت بها إيحاء، وذلك كالأصوات في ، أذن ، ساحر، شاعر، ضنين، فظ ... ألخ.

٥- بلغت الصفات المنفية عنه ﷺ في القرآن الكريم ١٩) تسع عشرة صفة نفاها المولى سبحانه وتعالى عنه تكريمًا وبراءة وتنزيها.

٦- لعب المقطع الصوتي دورًا بارزًا في الكشف عن بلاغة المعنى وقوته؛ وذلك تبعا لتنوع مقاطع الصيغ الدالة على هذه الصفات.

هذا بعض ما توصلت إليه الدراسة في هذا الجانب الذي شرفت بالبحث فيه، ومحاولة سبر أغواره، والذي أرجو من الله أن أكون قد وفقت فيه، فله الحمد في الأولى والآخرة، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحثة

((ثبت بأهم المصادر والمراجع))

- القرآن الكريم.
- إرشاد العقل السليم إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)،الناشر: دار إحياء التراث العربي .
- أمالي ابن الحاجب، المؤلف: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (ت ٦٤٦هـ) ، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار – الأردن، دار الجيل – بيروت ، عام النشر: ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.
- أنوار التنزيل أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ)، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ) المحقق: مجموعة من المحققين،الناشر: دار الهداية
- التحرير والتنوير المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ) ا لناشر : الدار التونسية للنشر – تونس،سنة النشر: 1984 هـ

➢ التعريفات المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م

➢ تفسير أسماء الله الحسنى ، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبيد بن علي العبيد، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد 112 - السنة 33 -1421هـ

➢ تفسير المنار، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: 1990 م

➢ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م

➢ التوقيف على مهمات التعاريف ، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ) الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت- القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م

➢ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويح ،الناشر: مؤسسة الرسالة ،الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.

➢ التيسير في القراءات السبع، المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) ،الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

➢ جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م

➢ جمع الوسائل في شرح الشمائل، المؤلف : علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى : 1014هـ)، الناشر : المطبعة الشرفية - مصر ، طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي وإخوته

➢ جمهرة اللغة، لمؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م.

➢ الجواهر الحسان في تفسير القرآن،المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ

➢ الحجة للقراء السبعة، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (ت ٣٧٧هـ)،المحقق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح – أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م.

➢ الخصائص ،المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ،الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،الطبعة: الرابعة

➢ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)، المحقق:

علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، 1415 هـ

➢ زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ،الطبعة: الأولى - 1422 هـ

➢ شذا العرف في فن الصرف، المؤلف: أحمد بن محمد الحملاوي (ت ١٣٥١هـ) ،المحقق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، الناشر: مكتبة الرشد الرياض.

➢ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، المؤلف: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض

➢ شرح المفصل للزمخشر،المؤلف: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

➢ شرح تسهيل الفوائد، المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (ت ٦٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

➢ الشفا بتعريف حقوق المصطفى المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، الناشر: دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية - 1407 هـ

➢ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ،الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م

➢ فتح القدير لمؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ

➢ الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر

➢ الكافية في علم النحو، المؤلف: ابن الحاجب جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي (توفي: ٦٤٦ هـ)، المحقق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر ،الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة ،الطبعة: الأولى.

➢ كتاب السبعة في القراءات، المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ) ، المحقق: شوقي ضيف ، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ .

➢ كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

➢ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ

➢ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ)،تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور،الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1422، هـ - 2002 م

➢ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت

➢ لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ

➢ لطائف الإشارات = تفسير القشيري، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة

➢ المبسوط في القراءات العشر، المؤلف: أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، أبو بكر (ت ٣٨١هـ) تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق، عام النشر: ١٩٨١ م.

➢ مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، المؤلف: جمال الدين، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (المتوفى: 986هـ)، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة: الثالثة، 1387 هـ - 1967م

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.

➢ المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م.

➢ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت .

➢ معاني النحو، المؤلف: د. فاضل صالح السامرائي ،الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

➢ المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، المؤلف: د. محمد حسن حسن جبل

مفاتيح الغيب ، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.

المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت ، الطبعة: الأولى - 1412 هـ

➢ المفصل في صنعة الإعراب، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ،المحقق: د. علي بو ملحم ،الناشر: مكتبة الهلال – بيروت ، الطبعة: الأولى.الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م

➢ مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر.

➢ النهاية في غريب الحديث والأثر ،المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)،الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي.

➢ الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، المؤلف: محمد محمد محمد سالم محيسن (ت ١٤٢٢هـ)، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.